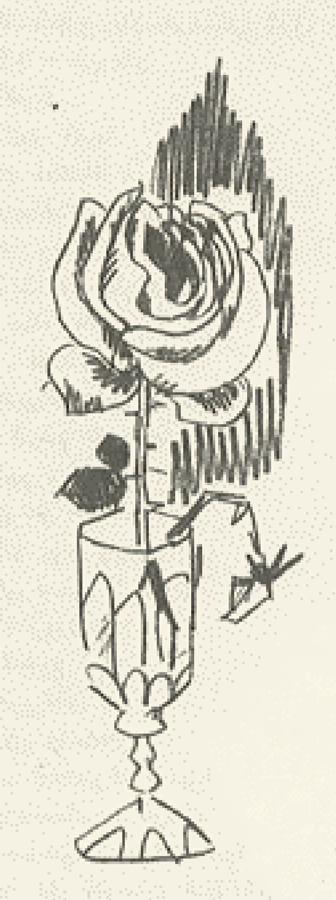


alexandra.ahlamontada.com
منتدى مكتبة الاسكندرية
قسطنطين باوستوفسكى
فنانون

قسطنطين باوستوفسكي

فنانون

محتويات



ترجمة : غائب طعمة فرمان

К. Паустовский

КНИГА О ХУДОЖНИКАХ

На арабском языке

П $\frac{4702010200-371}{031(05)-86}$ 081—85

ISBN 5-05-000098-x

مقدمة

منذ ايام الصبا استحوذت علىّ فكرة وضع تراجم حياتية عن احب رسامى العالم المغمورين فى القسم الاكبر منهم .

وكنت من حداثة السن والاعتداد بالنفس بحيث اعتبرت هذه المهمة سهلة التنفيذ . فالامر لم يكن يحتاج الا الى دراسة المواد ، والاندماج فى الحياة المهيبة لمعارض الصور ، وقراءة رسائل وكتب الرسامين .

ولم اكن اعرف آنذاك ، وحتى لم اكن قادرا على ان اتصور ان حياة الفنان بتعقدها وألق الوانها (اذا صح هذا التعبير) صعبة جدا على التصوير ، صعوبة اى غروب شمس ، مثلا ، اذا كنا نريد ان ننقل الى القماشة كل شعاع ، وكل انعكاس للشمس على سلسلة جبال بعيدة ، حين تتوهج القمم المنفردة كسبائك الذهب من خلال ازرقاق الفسق الهابط .

ان حياة الفنان ليست جريانا منسابا من الاحداث والتأملات . فان الفنان الحق دائم الاضطراب ، موار . والعاصفة الداخلية تهدر فيه ولا تكاد تهدأ ، عاصفة عدم الرضى بالنفس ، والاندفاع العارم نحو الكمال .

وميض البروق ، وظهور المناظر والوجوه الواضحة القوية من الظلمة ، واندماج الضوء والارجوان والفضة ، واختراق اقواس قزح وشآبيب الغيوث المتألقة ، وكل ذلك منظور بجبروت ، كما هو فى نقوشات «دوريه» . ان ذلك هو عالم الفنان .

واعترف باننى ما كان ليتسنى لى الوقت لكتابة هذا الكتاب عن الرسامين — كتاب عن عظمة ونبل عملهم الذى يرفع الانسان الى مجالات انقى مما فى الحياة .

وليس فقط ما كان ليتسنى لى الوقت للكتابة ، بل وما كان فى وسعى ان اكتبه . فان مثل هذا الكتاب يحتاج الى قوة جلد ، على

ما اظن وحتى الى خيال ، والى قدر من المعارف من المستبعد ان يستوعبها عقلنا المثقل .

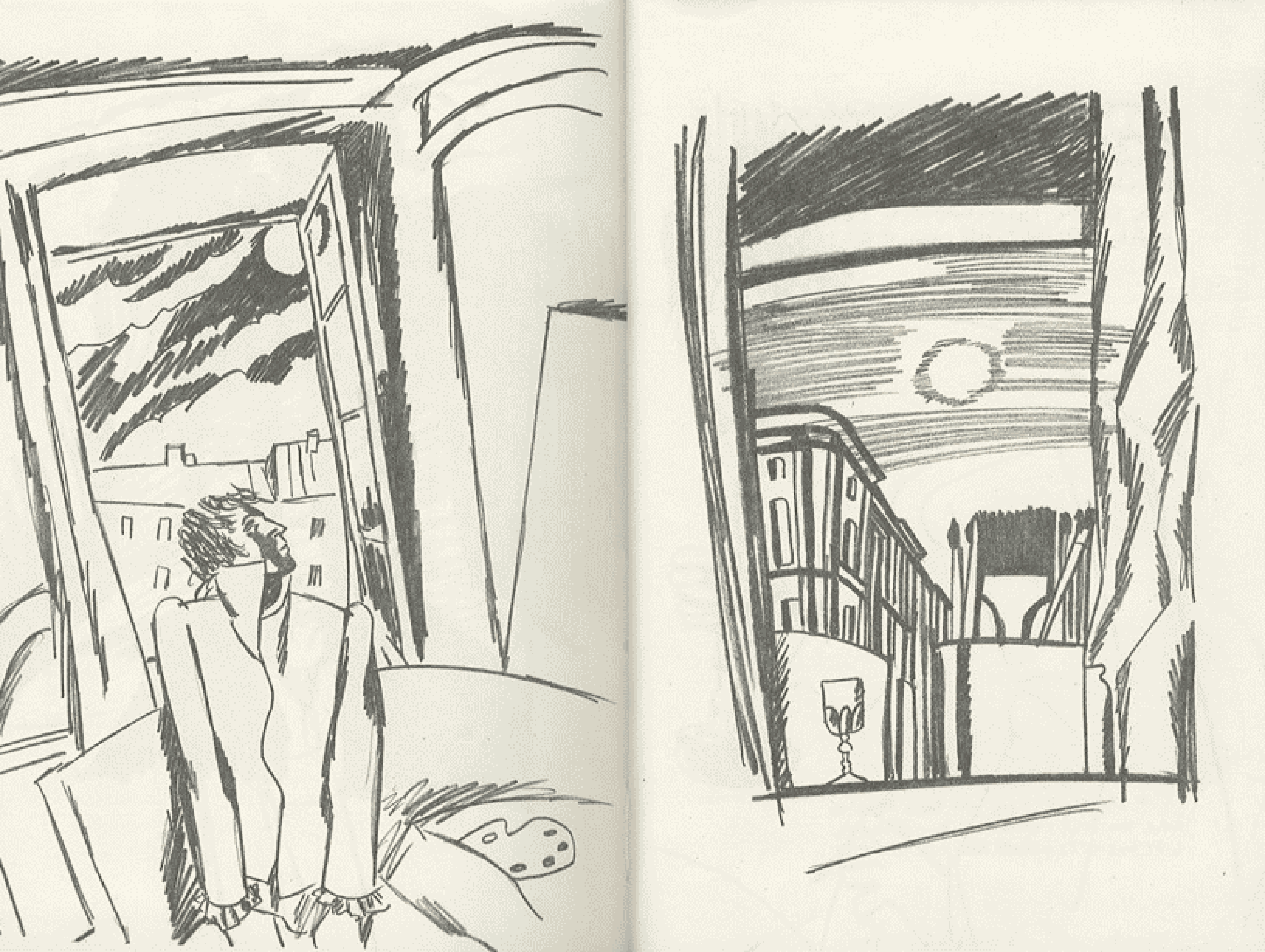
وهكذا ، بدلا من ذلك الكتـــاب كتبت بعض «الاوتشيركات» والاوصاف التي تضمنها هذا الكتاب . ولكنني سأكتب ايضا عن تيرنر وويستلر وبوريسوف‌ـموساتوف وكوستوديييف ويـوري بيمينوف . ولكن اعطوني مهلة ، حسب ما يقولون * .

---

* واعاق المرض ، ومن بعده الموت الكاتب من تحقيق هذه الفكرة . وقـد توفي ق . باوستوفسكي ق ١٤ تموز ١٩٦٨ ـ **ملاحظة الناشر** .



اوريست كيبرينسكى





في اواخر خريف ١٨٣٦ رست سفينة ايطالية متسخة في مصب نهر نيفا ، مقابل جزيرة غاليورني . وكانت قادمة من ليفورنو .

كان الثلج الاول ينزل ، ويتساقط طبقات من الاشرعة الخشنة ، الا انه كان يستقر كالفضة الرقيقة على عارضات الشراع . وفي غسق المساء كانت السفينة المسربلة بالثلج ، والمضاءة بضوء المصابيح ، تبدو حتى لبحارتها انيقة وخفيفة .

لقد جلبت السفينة حمولة نادرة – اللوحات الاخيرة للرسامين الروس الذين كانوا يعيشون آنذاك في روما . كانت لوحات بريولوف وبروني ، صور كيبرينسكي ونقوشات ايوردان ملفوفة بعناية وموضوعة في مقصورة فارغة .

كان محبو الرسم من اهالي بطرسبورغ ينتظرون وصول السفينة لوقت طويل . وكان الكاتب نيستور كوكولنيك اول من وصل الى رصيف الميناء . وقد نفض الثلج الرطب من ممطره وقبعته المستديرة ، وذهب الى مقصورة القبطان .

كانت شمعة ترتعش على منضدة سوداء ، وضوءها يكشف عن بضع برتقالات في مزهرية زجاجية مغبرة .

كان القبطان ياكل البرتقال ، وعصيره الفواح يسيل على اصابعه الملوحة . قال كوكولنيك في ابتسامة هازئة انه في نهاية الامر يحس بهواء ايطاليا ، هنا ، في بطرسبورغ .

غمغم القبطان بشيء غير واضح ، وسحب جرار المنضدة ، وهو يمضغ آخر قطعة من البرتقالة . وكانت في الجرار رسالة بين الخرائط الجغرافية واوراق اللعب . وقدم القبطان الرسالة الى كوكولنيك . فض كوكولنيك الظرف ، واخذ يقرأ . وهذا ما قرأه :

«في اواخر ايلول اصيب اوريست كيبرينسكي بحمى قاسية ما ان اخذ يبل منها بجهد الطبيب ، ويأخذ بالخروج من بيته حتى اصيب بنزلة برد من جديد ، وعادت الحمى اليه . ولم ينهض هذا الفنان بعد هذه ، وتوفي هنا ، في روما ، في اليوم الثالث من تشرين الاول الماضي» .

نهض كوكولنيك . وقال للقبطان خبرا منحوسا :

– لقد جلبت نبأ فاجعا . لقد مات في روما واحد من اعظم فناني قرننا ، ابن وطني اوريست كيبرينسكي .

ولم يجب القبطان . واخذ يعيد تصفيف البرتقالات . وعلى سطح السفينة في الاعلى كان البحارة يتنادون . وبدت اللغة الايطالية رنانة بشكل خاص في الثلج الكثيف المتناثر على الشوارع العريضة الخالية وقصور بطرسبورغ .

اختار القبطان اكبر برتقالة ، وتقاذفها على راحة يده .

– هاك ، خذ ، – قال ذلك وابتسم ، وغير لمعان اسنانه صورة وجهه المتجهم – في ايطاليا ينضج البرتقال والرسامون على الدوام ودون انقطاع .

استأذن كوكولنيك مودعا وخرج . واخفى البرتقالة في جيب ممطره ، وظل طوال الطريق يحس بثقلها ورائحتها .

سار كوكولنيك ببطء مغطيا فمه بيده من الريح ، وفكر بانه ليس في ايطاليا وحدها ، بل في بطرسبورغ ايضا يولد الرسامون بلا انقطاع . وقد مات اوريست الحبيب الساحر ، ولكن بريولوف وايفانوف واوتكين احياء .

كانت بيوت بطرسبورغ المطلية باللون الاخضر الفاتح والليموني والرمادي تبدو خزفية ، وضوء المصابيح يرتعش على الواجهات المعمارية الكالحة للبيوت .

– روما العظيمة وسط المستنقعات والغابات الشمالية ! – قال كوكولنيك ذلك قاصدا بطرسبورغ ، اذ كان معتادا ان يعبر عن افكاره بشيء من الفخامة – روما العظيمة في الثلوج ودجنة الليل . سيكون مصيرها رائعا .

وجلبت هذه الفكرة السلوى .

لم تعقب جريدة ولا مجلة واحدة على موت كيبرينسكي . وتحير كوكولنيك . كان من الصعب معرفة دواعي الصمت الذي احاط بموت هذا الفنان .

وبعد مضى ما يقرب من شهر على موت كيبرينسكى نشر كوكولنيك بعض السطور الحزينة ، فكتب فى «الصحيفة الفنية» :

«ان موت اوريست كيبرينسكى الذى سلب من روسيا بشكل غير متوقع واحدا من المع الرسامين مرّ فى المطبوعات الدورية كالظل الذى القته سحابة عابرة تسوقها ريح عاتية . حقا ان بعض التفاصيل عن ايام كيبرينسكى الاخيرة قد وصلت الى العاصمة الشمالية ، ولكن لماذا لم تصدر حتى التأبينات الصحفية الاعتيادية على القبر الشهير ؟ لماذا لم تقدم آية الاجلال الاخيرة للفنان ؟ لماذا ؟ نحن لا نستطيع ان نبت ، ولكن الاسباب ستكشف» .

وكان السبب بسيطا . وهو أن روسيا القيصر نيقولاى الاول لم تكن بحاجة الى كيبرينسكى ، كما لم تكن بحاجة الى فيدوتوف وبوشكين ورييليف وليرمنتوف وغوغل وايفانوف .

عاش كيبرينسكى حياة قصيرة . وقد بدأت بداية لامعة ، الا انها انتهت بحماقة وأسى . لقد امسكته روسيا من عنقه ، واحنته ببطء الى الارض حتى جعلته يركع امام الاعيان ، امام القيصر وبينكيندورف . وضل كيبرينسكى الفنان سواء السبيل ، وادمن على الخمر ومات موته الحقيقى بوقت كبير .

ظلت البرتقالة الايطالية مدة طويلة على مكتب كوكولنيك . وكانت تشيع نعومة خاصة فى الهواء المفعم برائحة الكتب القديمة والسخام الضعيف للقناديل .

وقد حرص كوكولنيك عليها ، وجاهد طوال الوقت ان يتذكر قصة كيبرينسكى التى سمعها منذ زمن بعيد ، منذ خمسة اعوام عن البرتقال . وتذكرها بعد ذلك ، وسجلها ، ولكنه ، كما هو دائما ، اضاع ما كتبه وسط العدد الكبير من الملاحظات عن الرسم والقصائد غير الكاملة .

يتذكر ان كيبرينسكى كان يحدثه عن طفولته . وكان يذكرها على مضض . انقضت فى عزبة قرب اورانينباوم . و«اورانينباوم» بالالمانية تعنى «شجرة برتقال» .

كان الشيوخ الذين يتذكرون عهد يليزافيتا يقولون ان هذه التسمية لم تكن بلا مدلول . ففى عهد مينشيكوف مؤسس اورانينباوم كان البرتقال ينمو فى دفيئات القصر هناك . وحتى شعار اورانينباوم كان يصور حقلا فضيا عليه شجرة برتقال تتساقط منها مثقلة بالثمار اليانعة .

وكان الشيوخ الذين عاصروا عهد يليزافيتا بحارة من ملجأ العجزة البحرى فى اورانينباوم — المرشدين والمعلمين الاوائل للصبى كيبرينسكى . وكانوا يسمون بـ«المرامطة» * . وكانوا يزجون الوقت كله فى الاحاديث البطيئة وفى النوم .

وفى اغلب الاحيان كانوا يتحدثون عن العواصف البحرية التى كانت تهاجم البوارج ، وهدير الامواج وصريف حبال الاشرعة . وكان يبدو بعد حكاياتهم ان الارض كلها مملوءة بالاعاصير الباردة وقتام السحب الثقيل والرياح والامطار والزوابع الرعدية . وكان البحارة الشيوخ يفتخرون بالعواصف ، وكأنما هم الذين استدعوها .

وكانت جهامة حكاياتهم تناسب الطبيعة المحيطة : سماء بيضاء ممتدة فوق الساحل المستنقعى للخليج الفنلندى ، وتعاقب مرهق لخريف وشتاء موحشين .

وكان الصبى الجزوع — وكان كيبرينسكى طوال عمره جزعا لهوفا — يترقب الصيف ، حين كانت الشمس ، فى آخر الامر ، تحول مياه الخليج الى ذهب شاحب ، وتتهفهف كالسهام الوضاءة فى اوراق اشجار حدائق القصور .

وكان البحارة فى الصيف يدبون طالعين الى الشمس ، وافواههم الخالية من الاسنان تبتسم لحفيف الاشجار ، وسقسقة الطيور الوجلة . وكانت حكايات البحارة هى الاخرى تتغير ، فتَترين عليها فترة صحو قصيرة وسط تلبدات الجو المستديمة . فكان البحارة يتذكرون ايطاليا ، ويخلطون فى اسماء البحار الجنوبية . وكانت

* مفردها «مرموط» — وهو حيوان قارض ينام فى الشتاء — **المترجم** .

ذاكرتهم تنفذ بجهد خلال الضباب الرصاصى ، خلال عمى الشيخوخة كالماء الكدر ، ثم فجأة تتوهج الذاكرة بنور البلدان الجنوبية الرافلة فى غياض الزيتون ورنين النواقيس .

كان كيبرينسكى الصبى — وهو ابن غير شرعى للواء دياكونوف الذى اوكل تربيته الى قنه آدام شفالبه — مستقلا بنفسه منذ نعومة اظفاره . وكان يستطيع ان يصغى ساعات الى قصص البحارة او يعدو من البيت الى حدائق اورانينباوم ، ويختفى هناك عن الحراس والبستانيين .

وكانت هذه الحدائق مشهورة بقنواتها . وفى فصول الربيع كانت تنعكس فيها خمائل الليلك الشذى ، والتماثيل المرمرية تنعكس فى الماء المخضوضر للبرك الباردة التى يسبح فيها سمك السلمون .

وكانت اورانينباوم ترهب الصبى بخلوها من الناس . فالمسرح والقصر اللذان بناهما راستريلى قد خليا منذ زمان . وخلال سنين عديدة لم تسمع كركبة عربات المتنزهين ولو مرة واحدة . وآلت الحدائق ، على ما يبدو ، الى حرش منفوش . ولم تعكس مرايا القصر صورة انسان ، ولم تسمع الصالات الباردة وقع اقدام ولا الموسيقى العسكرية لعهد الامبراطور باول منذ سنين .

كان الصبى حرا فى ان يُسكِن هذه الصالات بمن يتخيلهم من الابطال والنساء الفاتنات . وكان يفعل ذلك بحماس باعتقاد تام بوجودهم .

وهكذا تعود كيبرينسكى على الحلم منذ الطفولة . وبعد سنين عديدة اعطت روح الحلم البطولية هذه سحرا خاصا لاعماله . وكان ذلك فى الاعوام التى تحول فيها كيبرينسكى من صبى قن الى فنان ، وصارت اوروبا كلها تتحدث عن «ريشته السحرية» .

فى اورانينباوم كان كيبرينسكى يوفق من حين لآخر فى الانسلال متجاوزا كشك الحارس الى القصر نفسه . وكان الصبى
ويتفحص طويلا والى حد وجع الصدغ الصور القديمة المعلقة فى
يصعد الى المدرج بحذر ، ويضغط جبينه على زجاج الباب البارد ،
الصالات .

كانت هذه الصور تظهر الملوك والاباطرة يخبون على افراسهم فى دخان البارود الاصفر . ووجوههم المتعالية مضاءة بتوهجات مدافع الهاون القرمزية ، والدروع تلمع ، والرايات ترفرف فى السحب الراعدة الزرقاء المؤطرة باطار ذهبى ثقيل .

وكان كيبرينسكى يرسم فى البيت هذه الصور من الذاكرة ، وكان آدام شفالبه الطيب القلب يريها سرا لسيده دياكونوف . وكانت الرسوم جيدة ، فقرر دياكونوف ان يرسل الصبى الذى كان صغيرا جدا الى اكاديمية الفنون .

وعلى الرغم من ان كيبرينسكى كان ابن دياكونوف ، الا ان شفالبه كان يعتبر اباه بالاوراق الرسمية . فبعد مولد الطفل مباشرة امر دياكونوف شفالبه بأن يتبناه ، وان يعطى له عند التعميد لقبا عائليا هو كوبورسكى ، نسبة لمدينة كوبوريه مسقط راس الطفل بالقرب من اورانينباوم . وقد حمل كيبرينسكى هذا اللقب حتى دخوله الى الاكاديمية .

وفى الاكاديمية غير لقب العائلة الى كيبرينسكى . وفى ذلك الوقت كان يمكن للاولاد «غير الشرعيين» ان يبتكروا ويغيروا ما شاء لهم من القاب العوائل . فقد كان ذلك يعتبر من طبيعة الاشياء .

وفى اكاديمية الفنون انقضت طفولة كيبرينسكى وصباه كله . وانطبعت فى ذاكرة كيبرينسكى لمدى الحياة قصص «المرامطة» عن العواصف وحدائق القصر والصور المعتمة .

ولعله مدين للبحارة القدامى بالحدة الخاصة التى تجلى بها حبه للعواصف والزوابع الرعدية وسوء الطقس .

كان ذلك فى عهد الثورة الفرنسية ، حين كانت ريح الرومانسية تهدر فوق اوروبا .

كان الشعراء الشاحبون — فى البروق والعواصف والرعود — ينشدون اناشيد حماسية عن روعة الصداقة ، والنفحات النبيلة والحرية والشجاعة . ونشر جنود نابليون فى ابعد المدن الصغيرة

مجد الانتصارات والمراسيم الثورية ورفيف الرايات المهلهلة . ونظف الهلع العقول من تخمة القرن الثامن عشر وعنجهيته .

كان كيبرينسكى فى عهد دراسته فى الاكاديميـــة خاضعـــا للرومانسية . وكان يبحث عنها فى كل مكان . وكان بعد الجلوس المرهق فى الصفوف لينقل على الورق تماثيل من الجبس لزيوس وافروديت يخرج الى شاطئ النيفا ، ويتجول فيه ، ويترنم بابيات لشاعر مغمور :

اسدل الليل الظلام على الحدائق القديمة .
والريح تصفر وتعصف فى فرجات الغاب
والقلب الرقيق كله فى ضرام وجراح ،
يخفق من منتصف الليل حتى نجمة الصباح .
آه ، يا معشوقى الموزيات ، لقد تاكد نصيبى
نفير الحرب ينشد فى هذا الليل ذى المائة عين
والسحب تعصف ، فكان يد القدر
تلوح بسيف ثقيل فوق رأسى .

وكانت هذه الاشعار تدر الدموع من عينى كيبرينسكـــى . فقد كان فيها كل ما احبه منذ الطفولة : الحدائق القديمة ، والريح الباردة ، والسحب الليلية ، والقلب الرقيق . وفيما بعد قـوى تحت تاثير الزمن هذا الحب للطبيعة العاصفة والقلب الانسانـــى المضطرب .

كتب كيبرينسكى فيما بعد «غالبا ما يتراءى لى طريق اسود معرش بالاشجار . وتبدو الارض متحجرة ، وحتـــى الآن تحتفظ بمظهر الفزع» .

وليس بلا مدلول ان تكون فى كل الصـــور التى رسمهـــا كيبرينسكى فى عهد الشباب سماء متلبدة عاصفة تلوح دائما وراء الاشخاص الذين يبدو عليهم القلق ، ووراء الشعراء والمحاربيـــن والنساء الحزينات . ويحس المرء لاشعوريا بأن عاصفة رعديـــة بعيدة ، وتنفّس امطار شديدة يغطيان وجوههم بشحوب عصبى .

ان جمهرة هؤلاء الناس الغرباء والجذابين تبدو وكأنها نزلت لتوها الى شاطئ النيفا من سفينة قدمت من الارض التى ابتدعها بايرون ، من بلاد حيث الاحاديث الحكيمة والعواطف الجياشة تمد الوجود بروعة غير اعتيادية .

كان اوغريوموف ودوين معلما كيبرينسكى فى الاكاديميـــة ينظران الى فن الرسم بحماس وتدقيق . وكانـــا يتطلبان مـن تلامذتهما القدرة على الرسم بعيون مغمضة .

وكان دوين يلزم تلامذة الاكاديمية على ان يطلوا الجنفاصـــة بالالوان بشكل تتعذر معه تقريبا رؤية اثر الريشة حتى تحـــت العدسة المكبرة . وكان يستوجب ان يكون سطح اللوحة املس مثل عظم مصقول بالورنيش . وبعد هذا فقط كان دوين يسمح للرسامين الشبان بالعمل بلمسات عريضة حرة .

وكان الوقت كله ينقضى فى الرسم . وتعلم كيبرينسكـــى السيطرة على القلم بالدقة التى يعمل بها الجراح بالمشرط . ولم تكن ثمة فضلة من الوقت للقراءة .

وكان يسيطر على عقول الرسامين آنذاك ليفتسكى الاوكرانى الداهية الطيب القلب الذى ابدع صورا عبقرية لفرسان وسيدات عهد يكاترينا .

وكان الجميع يحاولون محاكاة درجة اللون الذهبية الدافئـــة للوحاته . كان الرسامون الشبان يلتقطون هذه الدرجة اللونية ويتدارسونها فى كل مكان — فى صفوف الاكاديمية المغبرة ، حين كانت الشمس الغاربة تلقى اشعتها المائلة على الباركيه (الواح ارضية الغرف) وفى الانعكاسات اللامعة للقبـــاب وارتعـــاش الشمعدانات البرونزية ، وفى حدقات الحسناوات المذهبة بلهب الشموع .

وفى لوحات ليفتسكى الاخيرة اختفت درجة اللون الذهبية . فقد استبدلها بدرجة لون بنفسجية وقرمزيـــة — درجة لـــون باردة شائخة .









وقد اتخذ دوين ذلك ذريعة ليلقى امام الطلاب خطابا عن اختلاف الاحساس بالالوان فى الشباب وسن النضج والشيخوخة .

— الشباب يتسم ببهرجة الالوان ، وسن النضج بالنسبة الدقيقة فى استعمال الدرجات اللونية الدافئة والعميقة ، والشيخوخة بالالوان الضاربة الى الزرقة والباردة ، الشديدة الشبه بلون العروق على ايدى الشيوخ — كان دوين يقول ذلك ويعجب بنفاذ بصيرته — ليس فقط ان لكل سن يمر بها الانسان الوانها المحببة ، بل ولكل بلاد ولكل قرن على مدى عمر البشرية . ادرسوا وجوه ناس والوان قرنكم ، اذا كنتم تريدون ان تصبحوا رساميه !

وسار كيبرينسكى على نصيحة دوين . فدرس وجوه اناس والوان قرنه بالحماسة المجبول عليها .

عاش كيبرينسكى فى ذلك الوقت حياة شاب بطرسبورغ طليق العنان ، مثل بوشكين الذى كان قد تخرج لتوه من الليسيه .

ولكن حتى فى مضطرب الحياة السهلة ، وسط حفلات الرقص والليالى الساهرة والانغماسات التى لا حد لها مع الحسناوات كانت تتوفر لدى كيبرينسكى لحظات من التركيز والانتباه .

وكانت ترد فجاءة . وتهبط عليه تارة وهو فى الشارع ، وتارة فى العربة فى طريق العودة من حفلة مع الرفقاء ، وتارة فى معمعان الحديث مع الاصدقاء .

وكان العالم المحيط به يتغير فجاءة ، وكانما من رجة داخلية شديدة . انى يوجه بصره ير الوانا صافية ، كثيفة تارة ، وشفافة اخرى ابدعها نور شمس الشمال والثلج وضوء المصابيح .

وكانت الارض الاعتيادية تبدو فى تلك اللحظات من صنع الرسامين العباقرة او المعماريين . كانت السماء والسحب تبدو وكانها مرسومة من قبل الرسامين الفينيسيين ، والآفاق المزرقة من الهواء البارد قد خطها راستريلى بقلمه الذى لا يخطا .

وذات مرة عاد كيبرينسكى من ضيافة فى الفجر الشتائى . وقد سار على الجسر عبر النيفا مطرقا براسه ، وغير مفكر فى شىء — فقد كان ناعسا . ومرت به عربة عجلى متاخرة تجرها ثلاثة احصنة . وتناثر على وجهه نثار الثلج اللاذع .

وافاق كيبرينسكى على نفسه ، ورفع راسه ، وتوقف . وما رآه فيما حوله كان اشبه بحلم مهيب منه بصباح بطرسبورغ .

لم يرد الليل ان يغادر بطرسبورغ . فكان يرقد طبقات من الهواء اليمامى الثقيل فى اسافل المبانى ، وفى اعماق الحدائق .

وبزغت الشمس . وتوهج ضوءها القرمزى على نوافذ القصور ، وهبط الى الاسفل ، فى الظلام ، منتزعا منه تارة كشكا مخططا لحارس ، وتارة نصبا برنزيا لقائد شابته ذرور الثلج ، وتارة ثالثة تاج عمود مزدانا باوراق الاقنثوس المتجمدة .

كانت سماء ايطاليا تمتد فى السمت صافية رائعة ، فى قافلة من السحب الخفيفة المتوردة . وكان يتطاير ثلج كثيف ببطء . وبدا ذلك فى صحو السماء غير مفهوم . وتراءى وكأن الثلج يتكون فى الهواء الصافى بين الارض وقبة السماء .

نظر كيبرينسكى طويلا الى تساقط الثلج المهيب ، وسط ساحات بطرسبورغ الخرساء الخالية من الناس . وكان الثلج يستقر برفق على درابزينات الجسور ، وعلى ياقة المعطف الفرائية ، وظهور الحوذية النائمين .

كانت العاصمة مغطاة بلألاء ابيض . ودقت ساعة برج بعيدة معلنة السابعة . وفيما حوله تتدفق رائحة الغابات المحدقة ببطرسبورغ من الشمال والشرق .

وفكر كيبرينسكى : «كم انا سعيد وقد ولدت فى روسيا» .

وحين وصل الى حجرته القى عنه معطفه المبلل وجلس عند الموقد المشتعل . وقال فى حنين :

— اين اجد اللون لاصور فيه هذا السكون الشتائى ، وهذا اللألاء والقصور التى فقدت حجومها وثقلها ، واخيرا لاصور قلق قلبى ؟ وباية ريشة الهية استطيع ان انقل النشوة الخرساء لهذا الصباح ؟

ولكن فى الغد ، وبعد هذه الافكار نسى الرسام الشاب — المتانق الطائش — كل ذلك ، وطرح الريشة ، واسرع ليشاهد استعراضا عسكريا للحرس . كانت الافواج هناك تقف على قدم

واحدة كاشفة عن سيقان مجوربة ، جامدة تحت نظرة الامبراطور باول السيّالة المخبولة . وكانت فى انتظار كيبرينسكى هناك فتاة من المعارف محبة للتدريبات العسكرية .

كان يثير اعجابها لمعان السيوف المرفوعة نحو السماء ، وقرع الطبول ، والطبطبة الموزونة للافواج التى كانت تدور حول الامبراطور المعكوف الأنف .

وذات مرة قالت الفتاة لكيبرينسكى :

— لو اعطيت قلبى لما اعطيته لغير محارب .

وفى الاستعراض التالى اخترق كيبرينسكى صف الجنود ، واندفع نحو باول وصاح :

— يا صاحب الجلالة ! انا رسام ، ولكننى اريد ان استبدل الريشة بالسيف ! اتوسل اليكم ان تقبلونى فى الجيش .

تعبّس باول ونظر الى المتانق الشاب ، وكبح حصانه .

وقال من خلال اسنانه :

— ابعدوه . الاستعراض العسكرى مقدس . ولن يبيح احد لنفسه الاخلال به بصيحات نزقة .

وتلقى كيبرينسكى من رئاسة الاكاديمية توبيخا صارما . وقد قرئ التوبيخ بحضور جميع طلاب الاكاديمية .

وهزّ الرفاق اكتافهم بكدر . وكان من العسير ان يفهموا كيف ان شابا يملك مثل تلك الموهبة يريد أن يستبدلها لكسب ود امرأة .

وعانى كيبرينسكى خجلا شديدا ، ولكن سرعان ما نسى ما جرى فى الاستعراض . فقد كان مستخفا ليس فقط ابان شبابه ، بل وفيما بعد ، فى سنوات نضجه . وفى آخر الامر قضت عليه الخلخلة الطفولية والركض وراء البهرج الظاهرى .

رسم كيبرينسكى ، وهو ما يزال فى الاكاديمية ، المنظر الطبيعى «البركة» ، وهو من اروع المناظر الطبيعية فى الرسم الروسى . مفعم بالسكون والروعة .

البركة ساكنة . والماء فيها صقيل داخن ، ذلك ما يكون عادة فى الصباح الباكر او غب الشفق .

اسوار الاشجار العالية ، الادغال الداكنة تقف على ضفاف البركة بلا حراك . وفى السماء تخيم سحب رمادية مشبعة بالندى . وتمثال امرأة مرمرى يحدق بكآبة فى الماء الوضيء .

ان لوحة كيبرينسكى هذه تماثل ببساطتها ورقتها قصائد بوشكين التاملية النادبة * . فان شعر ساعة الغسق قد انعكس فيها بارهف مهارة .

كان اصدقاء كيبرينسكى يقولون انه كان كالطائر الليل لا يبدأ بالعيش الا فى الغسق .

ويحس المرء لاارادياً بان هذين البيتين المنسيين لبوشكين فى مطلع قصيدة غير كاملة يشيران الى كيبرينسكى :

الا ، ايها الليل ، خبرنى
لمَ ظلمتك ابهج الىّ . . .

والبيت الاخير مقطوع ، ولكن فحواه واضح . ان ظلمة الليل ابهج من ضوء النهار الفاضح . كان الرومانسيون يميلون دائما الى الغسق ، حين تبدو لا الطبيعة وحدها ، بل ووجوه الناس ايضا مبهمة وملهمة .

فى ذلك الوقت على وجه التقريب رسم كيبرينسكى صورة ابيه .

وبعد عدة سنوات عرض هذه الصورة فى نابولى . وهاج رسامو نابولى اشد الهياج . واستدعى كيبرينسكى الى نيكولينى رئيس اكاديمية الفنون فى نابولى .

وقد قابل هذا الايطالى العجوز الصفراوى المزاج كيبرينسكى بارتياب وقال ان افضل المختصين بفن الرسم قد فحصوا الصورة بتدقيق ، ووجدوا ان ليس من الممكن ان يرسمها اى رسام من القرن التاسع عشر . واعتبرت الصورة عملا من اعمال روبنس انتحله كيبرينسكى لنفسه . حقا ان اصوات المختصين قد

---

* آثرت هذه الكلمة ترجمة لما يسمى elegy — المترجم .

اختلفت . فبعضهم اعتبر الصورة من عمل فان‌ديك ، وآخرون نسبوها لرمبراندت .

وقهقه كيبرينسكى فى وجه الرئيس . وراح نيكولينى يصرخ بان الاكاديميين النابوليين لن يسمحوا بأن يخدعوا من قبل اجنبى بهذه الصورة الوقحة .

وبالطبع اثبت كيبرينسكى بدون عناء ان الصورة بريشته ، وفيما بعد ظل يسخر طويلا بالنابوليين .

فى عام ١٨٠٣ انهى كيبرينسكى الاكاديمية بشكل لامع . وبدأت افضل سنوات حياته .

لم يكن بدون جدوى تمسك كيبرينسكى بنصيحة دوين ، ودراسته لوجوه اناس عصره . فقد خلق منظومة من الصور ، حيث كان كل وجه يعبر عن الانموذج الداخلى الكامل للانسان ، عن ابرز صفات طبعه .

ودراسة صور كيبرينسكى تثير فى النفس انفعالا ، كذلك الذى تحس به وقد قضيت وقتا طويلا فى التحدث مع الكثيرين من القادة العسكرين والكتاب والشعراء والنساء فى بداية القرن التاسع عشر .

كان كيبرينسكى يرسم بنضارة وسعة واكتمال .

وفى صوره لا تبرز الوجوه وحدها ، بل وكان معها كامل حياة الاشخاص الذين رسمهم — عذاباتهم ، اندفاعاتهم ، البطولة ، الحب . وكل هذه قد تركت اثرها على هيئتهم ، ونقلتها الريشة .

كان احد معاصرى كيبرينسكى يقول انه حين يخلو الى صوره يسمع اصوات اشخاصها .

وفى ذلك نصيب من الحقيقة . فان حياتية الانطباع عظيمة جدا ، بحيث اننا ، ونحن ننظر الى صورة بوشكين ، يخيل لنا اننا نسمع صوته المالوف لنا منذ زمان يخاطبنا ، نحن احفاده البعيدين .

وذخيرة اعمال كيبرينسكى متنوعة . وهى صور ذاتية رائعة ، وصور اطفال ومعاصرين له من شعراء وكتاب ورجال دولة وقادة ومحبى فن الرسم وتجار وممثلين وفلاحين وبحارة وديسمبريين ورسامين وماسونيين ونحاتين وهواة جمع الاشياء ، ونساء مستنيرات ، ومعماريين .

ويكفى تعداد بعض الاسماء لكى ندرك ان كيبرينسكى كان الرسام الحقيقى لزمانه : بوشكين ، كريلوف ، باتيوشكوف ، الشاعر الاعمى كوزلوف ، روستوبتشين ، الكونتيسة كوتشوبى ، علامة الفنون اولينين ، غولنيشيف-كوتوزوف ، الماسونيين كوماروفسكى وغوليتسين ، الاميرال كوشيليف ، بريولوف ، الممثل موتشالوف ، مترجم الالياذة غنيديتش ، الفارس الاسطورى دينيس دافيدوف — «المحارب ذى الشعر الاسود الاجعد والعقصة البيضاء على الجبين» ، الفدائى فيغنر ، دى فولان بانى ميناء اوديسا ، الديسمبرى مورافيوف ، الشاعرين فيازيمسكى وجوكوفسكى ، المعمارى كفارينغى .

وهذه القائمة لاعمال كيبرينسكى الشاب ناقصة الى حد بعيد . فقد ترك كيبرينسكى ايضا عدة صور ذاتية له .

كان يرسم نفسه تارة متتلمذا على فن الرسم ، وتارة صبيا حالما يطالع الاشعار ، وتارة شابا انيقا دافقا بالحيوية من علية القوم جامعا فى نفسه صورتى موزارت ويفغينى اونيغين .

ولكنه فى كل هذه الصور متشابه — عصبى ، مستخف ، رهيف ، ذو حاجبين مائلين متطايرين . وكان رفاقه يسمونه «الطائش الرقيق» وقد ترك احدهم عن كيبرينسكى ملاحظة مقتضبة ، ولكنها معبرة :

«كان متوسط القامة ممشوق القوام الى حد كاف وحلو الا أنه كان يحب اكثر ان يجعل نفسه وسيما» .

قبل حرب عام ١٨١٢ بوقت قصير ارسل كيبرينسكى الى موسكو كمساعد للنحات مارتوس . وكان مارتوس فى ذلك الحين يعمل فى نصب مينين وبوجارسكى .

وفى موسكو استمر كيبرينسكى فى الرسم بالحماس المعهود وبمهارة .

وكان يحلم فى السفر الى ايطاليا ، يحلم فى روما – الوطن الثانى للرسامين ، الا ان الحدود كانت مغلقة .

فقد كان جيش نابليون يزحف على اوربا فى هدير المعارك والانتصارات . وكانت المتاحف تهتز على دوى قصف المدافع ، والقذائف تجتاح بولفارات فينا الموسيقية . وقد غادر الرسامون الحقول تاركين المكان لعجلات المدافع والفرسان المخبرين وعربات الاسعاف .

وسلّم كيبرينسكى بما هو واقع ، وراح يجاهد ليساعد مارتوس النحات الذكى الذى كان قد اشتهر بنصب الدوق ريشيليو فى اوديسا .

فى تلك الفترة تكشفت موهبة كيبرينسكى بكامل صورتها . وبدا وكأن خفة الطيش قد زايلت الفنان . وكان يحس بعمق وقوة ، ويعبر بجرأة واتساق عما كان يحس به .

وكان العمل يطاوعه بسهولة . فكان «معبود الحظ» عن حق .

وانتقل كيبرينسكى من موسكو الى تفير ، حيث كانت تعيش فى ذلك الوقت ابنة باول الاول الاميرة يكاتيرينا بافلوفنا . وقد دعت كيبرينسكى الى دارها ، واحاطته بالرعاية والاهتمام .

كان قصر يكاتيرينا بافلوفنا قد تحول الى منتدى للادب والفنون الجميلة . وكان الكثيرون من البارزين فى موسكو يفدون اليه بدون كلفة .

وكانت نوافذ القصر تتوهج فى كل مساء بمئات الشموع . وفى غرف الاستقبال كان شعراء موسكو وكتابها ورعاة الادب والفنون والرسامون يدخنون ويتجادلون وينشدون الاشعار ويتساجلون .

وكانت الحرب تقترب . وانفاس ايام القتال ، وتحركات الجيوش ، والهلع الذى استولى على البلاد – كل ذلك قد زاد توتر وقلق الفكر .

فى بعض الاحيان عند انتصاف الليل كان يدخل القصر مسرعا

ضيف جديد غير متوقع . وكان ممطره يفوح برائحة الريح والحقول . وقد جاء من موسكو الى تفير على عربة بريد فى نفاد صبر ليعلن آخر اخبار المعارك ، وليستمع الى الاشعار الطنانة ، وضجة النقاشات المتحمسة .

وما اكثر الذين مروا بالمصباح الكابى عند مدخل تفير وبالحارس العاجز الكسول من القادمين المعهودين فى روسيا كلها .

كان كيبرينسكى يعيش مع الجميع حياة حافلة ساهرة .

ولكن فى احد الاماسى لم يقدم أحد . ودخل ساحة المدينة فوج من الفرسان العبوسين يخبون على افراسهم ، واقاموا مخيما . واشعلوا نيرانا اضاءت قطرات المطر السوداء . وكانت الخيول تعلك بصوت عال ، ورائحة الدخان والروث وعرق الخيول والخبز جزءا لا ينفصل عن الشجار الاجش وصوت البوق الهازج . لقد احتل نابليون موسكو .

وران السكون على تفير . ولم يصل احد . ولم يجد كيبرينسكى من يرسمه . عند ذاك اخذ يرسم صور فلاحين ومناظر طبيعية فى اطراف تفير وشواطئ الفولغا .

وحل القلم محل الريشة . غير ان كيبرينسكى كان يلون رسومه بدقة مذهلة .

وذاعت شهرة كيبرينسكى بسرعة فائقة .

وعاد من تفير الى بطرسبورغ عبقريا معترفا به تقريبا . ونفذ صيته الى اوربا الغربية . وكانت العاصمة كلها تتحدث عن «القلم الساحر» للرسام . وكانت الخفة التى يبدع فيها صوره تبدو اعجازا .

ودعى كيبرينسكى الى البلاط ليرسم صور الامراء العظام . وكانت جميع الشخصيات البارزة فى العاصمة تسعى للحصول على شرف تخليدها من قبله .

وانقلب الاعتراف الشرعى لخبراء فن الرسم بالرسام الى موضة فارغة جعجاعة فى الطبقة الراقية البطرسبورغية . وصار كيبرينسكى على الموضة ، مثلما كانت قلائد المرجان بين النساء

فى ذلك الوقت ، وسلاسل الساعات الرنانة – المسماة «شاريفارى» – بين الرجال .

وأخذ كيبرينسكى يرسم افضل من ذى قبل . ومهارة صوره ، ولا سيما صورة آل خفوستوف تبدو وكأنها بلغت حدود الامكانيات الانسانية . وتناقلت بطرسبورغ الكلمة المجنحة التى القاها احد الناس ، والقائلة بان الوان كيبرينسكى تؤثر فى الناس تأثير خمرة شمبانيا . فهى تولد تحولات حادة من الابتسام الى الاسى الغامض ، من النشوة الى الاستغراق .

ان كيبرينسكى الممتلك لموهبة الرسم بلا مقدمات تحضيرية ، وان كان يفتقر الى الكثير من المعارف الضرورية والصلابة والشجاعة كان غارقا فى لألاء المجد . ولم يكن يشفق على نفسه . وكان الالهام الحالة التى تعز على التحديد ، حلم الفنانين والشعراء – يستمر اياما ، اسابيع ، شهورا .

وكان الالهام يجعله يضحك فرحا عند كل ضربة موفقة من الريشة ، ويعانى من الارق ، ويطوف فى بطرسبورغ فى اخضرار والق الليالى البيضاء ، يتمعن فى المياه الغافية المتعددة الالوان لكى ينقل هذه الالوان فيما بعد الى الجنفاصة .

كان ايمان الرسام فى عظمة الموهبة الوضاءة ليديه وعينيه وتحسسه للعالم يجعله فى حالة من التوتر الداخلى المستمر .

فهو يخرج من مرسمه الفواح باللك الى القصور الامبراطورية حيث يبدو الهواء له نبيلا لكثرة اللوحات والاثاث والبرونز المصنوعة بايدى الاساطين . وحين يخرج من قصر يلتقى باصدقاء يحيونه بفتوة وفرح . ويلتقى بنساء يبتسمن علانية له ولشهرته ولشبابه السعيد – نساء رائعات ينتظرن حبا شديد الروعة ايضا .

راسه فى دوار . والايام تمر بتوتر شديد . وقد ولد التعب مثل الفارة فى مكان ما فى اعماق الدماغ ، وها هو ذا يشرع فى

القرض بصورة خفيفة فى البدء مستثيرا نوبات من الوجع فى راسه . وكان كيبرينسكى يغرق بالنبيذ تعبه ودوار رأسه .

ولم يكن كيبرينسكى يعرف ، وما كان فى وسعه ان يعرف ، ان الشهرة لاناس من امثاله افظع من الموت .

كان يستمتع بالشهرة ويفتخر بها . وكان يصدق فى صفاء نية بالتملق وتدبيجات الصحفيين الطنانة . فكان يظن ان العالم الآن تحت قدميه طيعا لالمعيته .

ولم يكن يعرف ان الموهبة التى لم تسبك فى اشكال صارمة من الثقافة لا تترك ، بعد ان تنفجر للحظة ، غير السخام . ونسى ان فن الرسم لا يوجد من اجل الشهرة . واستهان بكلمات بوشكين القائلة بأن «خدمة آلهات الفنون لا تحتمل اللغط والجلبة ، فان ما هو جميل يجب ان يكون مهيبا . . .» .

وقد دفع لذلك فيما بعد ثمنا باهظا وقاسيا .

لا احد يدرى بم كانت ستنتهى تلك الايام المجهدة لو لم تأت فترة من التقاط الانفاس . فقد سمح لكيبرينسكى بالسفر الى روما «للتحسن فى مهارة فن الرسم» .

فلربما كان كيبرينسكى قد تحطم ومات فى شبابه ، كما مات العديد من الموهوبين فى روسيا آنذاك . ولربما ما كان ليجعل الفن وسيلة للنجاح فى الحياة ، وهو يعيش قريبا من جوكوفسكى وبوشكين ، وفى وسط من الناس العارفين بتخلخله الروحى . فمن يدرى ؟

كان هو فى قرارة نفسه يدرك انه يرتكب خطأ ، ولكنه ، وهو غير المتعود على تحليل حالاته النفسية ، لم يستطع ان يقرر كيف يجد الخلاص منه .

كان يتشوق بشكل مبهم الى صديق يمكن ان يمسكه عن الركض وراء النجاح والبهرج الخارجى ، ويشفيه من شلل الارادة ويلهمه حكمة انسان كبير وتواضع عبقرى حقيقى . وقد لاحق هذا الحنين الى الصديق – الحارس كيبرينسكى حتى مماته ، ولكن التعطش الى الحياة السهلة والنجاح كان يتغلب على كل شىء .

ابحر كيبرينسكى من بطوسبورغ الى ليوبيك على سفينة . وكان البحر هائجا . وقد اعجب كيبرينسكى بذلك . فقد خيل اليه ان السفينة تحمله الى الاقطار الرومانسية الضبابية التى راودت احلامه منذ الطفولة .

وصعقته ليوبيك بخوائها . فقبل فترة وجيزة غادرتها آخر افواج نابليون . استقبلت المانيا الفنان بحفيف اشجار الحور على جوانب الطرق ، وهدير الراين السريع الجريان . واخيرا وصلت عربة كيبرينسكى الى سويسرا . ورأى جبال الألب . وهو يكتب فى رسالة الى اولينين متعجبا :

«لقد شاهدت الجبال التى حكم عليها بالجليد الابدى» .

توقف كيبرينسكى فى جنيف ، وفيها رسم عدة صور ، وانتخب عضوا فى جمعية الرسامين . وقد استقبل هذا الانتخاب كشىء يناله عن استحقاق .

وغادر جنيف الى ايطاليا . ولم يبارحه الفرح . فان ازدهار الطبيعة الاجنبية قد خلق حوله عالما جديدا للرسم .

واستقبلته الغابات الكثيفة على ضفاف لاغو-مادجوره بحفيف خفيف . وكان ضوء الشمس يرتعش على اوراقها وكانما على سطح البحر . «كانت عناقيد العنب تتوهج كالياقوت ، والقرى تبتسم لصورتها على الماء اللازوردى وكانت اصوات الرعاة تتردد غير مفهومة ومرحة فى الهواء الدافىء الساكن» .

وفى ميلانو قضى كيبرينسكى اياما كاملة عند لوحة «العشاء السرى» لليوناردو دافينتشى . وقد ذكر له الحراس الذين يحرسون اللوحة ان نابليون نفسه قضى عدة ساعات جالسا امام تحفة دافينتشى فى استغراق عميق . ومدّ تامل كيبرينسكى فى «العشاء السرى» هذا الفنان بايمان جديد فى قواه . فكتب :

«عند مشاهدة ابداع عبقرى تتولد الجراة التى تعوض فى لحظة واحدة عدة سنوات من التجربة» .

وفى مسرح ميلانو استمع كيبرينسكى لاول مرة الى «الفلوت السحرى» لموزارت .

وملأته بالاعجاب الاصوات الصافية لموسيقى موزارت ، تلك الاصوات الشبيهة بما تصدره الابواق الفضية . كان كيبرينسكى يريد ان يجد فى موسيقى موزارت تبريرا لنفسه ، ذلك لان مبدع هذه الموسيقى الرفيعة هو موزارت المتقلب النزوات ، النزق كامراة ، والذى كان يقضى لياليه فى حفلات السمر والمغامرات .

ولكن كيبرينسكى لم يكن يعرف ان موزارت لم يدع موسيقاه قط تخضع لنجاح رخيص .

دخلت عربة السفر روما فى ساعة متاخرة من المساء . فقد تاخرت فى البانى ، حيث قام رجال الجندرمه الكسالى بتدخين اشياء المسافرين بالكبريت للتعقيم . فقد كانت الكوليرا تستشرى فيما حول روما .

وحين هدات دمدمة العجلات على الجادة الحجرية ، سمع كيبرينسكى خرير الماء الطرى فى نافورات المدينة . كان الماء يترقرق ويشدو مالئا الليل بوسوسة منوّمة .

وخفق قلب كيبرينسكى بشدة . قادوه الى غرفة معتمة معقودة السقف فى فندق ، واشعلوا الشموع .

اطفاها على الفور ، وفتح النافذة على مصراعيها . كان الليل يخيم على روما مهيبا كالماضى السحيق . وبدا وكان الاطالسة يرفعون السماء الليلية على اكتافهم العريضة ، ومن تعبهم ينوخون اكثر فاكثر نحو الارض مقربين النجوم منها .

كانت المدينة اللغز ترقد تحت قدمى الفنان . ظل كيبرينسكى يمعن النظر طويلا محاولا ان يميز الاطلال العظيمة ، وفجاة اعترته رعدة — ارتفعت فى الظلام قبة هائلة ثقيلة لكاتدرائية اكثر حلكة من الليل . لقد كان ذلك معبد القديس بطرس .

واحس كيبرينسكى بالخوف . فقد عادت الى ذاكرته سنوات بطرسبورغ الاخيرة . وشربك التعب المفاجىء عليه افكاره .

وفكر كيبرينسكى وهو يبتعد عن النافذة : «الم استنفد نفسى بالعربدة فى بطرسبورغ ؟ وهل لى من الطاقة ما يكفى لمتابعة ما

بداته بنجاح كبير ؟ وهل سأبلغ ذرى رافائيل ؟ ولكن بلوغ ذلك ضروري» .

«لن !» قال شخص بوداعة في الظلام وراء النافذة .

التفت كيبرينسكي بسرعة . لم يكن ذلك غير ناقوس كنيسة ثقيل يرن معددا الساعات .

«لن !» كرر الناقوس ، وسكت ، الا ان الظلام ظل وقتا طويلا يطن من صوته النحاسي .

كانت الساعة الثانية ليلا . وبارحت كيبرينسكي قواه . فغفا دون ان يخلع ملابسه .

وفي الصباح غمرت وجهه سماء روما الكثيفة ، وملأ الغرفة هواؤها الازرق . وترنمت النافورات وقرعت النواقيس . وفي الاسفل ، في الساحة المكتظة كان الايطاليون باعة الخضروات يتشاتمون ، ويزعق سواقو الحمير باعلى اصواتهم .

اغتسل كيبرينسكي بسرعة ، وهبط السلم صافرا ، واختلط بالحشد الزاهي المراوح امام عربة الكاردينال الحمراء .

كانت الريح تهب فوق روما تسوق سحبا جدباء منفوشة تماما كما في لوحات عظماء الفنانين القدامى .

واصل كيبرينسكي الذي سممته الشهرة سبيله في روما الملغزة .

مع كل يوم كان يزداد يقينا بانه ليس في مقدرته بلوغ ذرى رافائيل . وعاني من الشعور الذي وصفه غوغل بقوله : «وشمخت امامه بجهامة مبدعات الريشة الجبارة على الجدران المسودة مبتعدة اكثر فاكثر عن ان تبارى او تحاكى» .

ما هو السر في رافائيل ؟ واين يكمن السحر في الاساطين القدامى ؟ وكيف يكشف عن هذا السر ، وكيف تنقل الى لوحاته خفة ريشة الآخرين ؟

لم يكن كيبرينسكي يعرف . وكان يريد قهر روما ، كما قهر

بطرسبورغ قبل وقت غير بعيد . وكان على عجلة من امره ، ولهذا سار في اسهل طريق .

كانت لوحات رافائيل مرسومة برهافة وانسياب . وعزم كيبرينسكي على ان يرسم اعماله بعناية مثل رافائيل وكوريجيو . فكانت تخرج جافة ميتة . لقد خان الفنان نفسه . وكانت عيناه كما لو انهما لم تكونا تريان الالوان الحية .

وبدلا من الصور العظيمة اخذ يرسم تكوينات مضجرة للمسيح محاطا باطفال ، ورؤوس حلوة لغجريات صغيرات غرزن في شعورهن ورودا .

كان يريد ان يقهر روما ، ولكنه لم يكن يعرف روما .

ذات مرة سمع كيبرينسكي اغنية تغنى بمرح في الشارع عن بريولوف . ولاول مرة مس الحسد قلبه . فان روما — روما الخالدة — كانت تغنى اغنية عن رسام روسي شاب ، لا عنه ، لا عن اوريست اللامع .

كان كيبرينسكي غريبا على روما . طلب اليه معرض اوفيسي للصور في فلورنسا صورة شخصية له . ولكن ذلك قليل على كيبرينسكي . فقد عرف الكثيرون الصورة . ولكن ليس روما كلها .

كان كيبرينسكي يريد ان يكون لامعا لا في الرسم فقط ، بل وفي الحياة اليومية ايضا . كان يحلم بان يتعقبه المجد الهائل في كل مكان — في الحانات والقصور ، في الفاتيكان والاكاديميات ، وسط الرومانيات الفاتنات والرسامين الحاسدين — ويصيب الرؤوس بالدوار ، ويهبه الغنى والرفاه والحب والتبجيل .

في روما حلّ بالنسبة لكيبرينسكي اوان الاختيار الاخير بين الحياة الصارمة لفنان حقيقي وبين العيشة المذهبة لرسام على الموضة . واختار كيبرينسكي الامر الاخير .

في ذلك الوقت كانت الحرب قد مرت زوبعتها ، ونفي نابليون الى جزيرة مقفرة في المحيط . وهدأت رعود الثورة في هواء اوربا الذابل .

وكانت الرومانسية تحتضر دون ان تجد سندا فى الحياة المحيطة . وحل تشيتشيكوف وخليستاكوف محل الابطال السابقين والنساء الشاحبات من الرقة . لقد كانت الرومانسية تحتضر وكان يحتضر معها كيبرينسكى كفنان .

وسرعان ما ضجر كيبرينسكى من الرسامين الروس الذين كانوا يعيشون فى روما .

كانوا يغردون كالسمان الايام كلها بلا انقطاع وراء مساند الرسم فى غرفهم الضيقة ، وفى الاماسى يملأون الحانات فى ساحة اسبانيا داخلين فى نقاشات لا ثمرة فيها وامامهم نبيذ رخيص .

كانوا يرسلون لحاهم ليشبهوا اساطين عصر اليقظة ، ويلقون مماطرهم على اكتافهم باهمال ، ويحلمون بمجد كانوفا ، ويمرضون بحمى روما «ترتسيينا» ، ومن وقت لآخر يحتضرون من السل . فقد كانت روما مهلكة بالنسبة للشماليين .

ولم ينجذب كيبرينسكى الا الى روسيين ، هما بريولوف والمسلول الخجول تامارينسكى . ولم تنعقد الصداقة مع بريولوف فقد صمت هذا بصورة مكدرة وهو ينظر فى اعمال كيبرينسكى الاخيرة فى ايطاليا . وقد فسر كيبرينسكى المتوجس ذلك بالحسد .

وصمت تامارينسكى ايضا ، ولكن لم تكن فى عينيه ادانة . انه حتى فى روما كان يلف رقبته الهزيلة بلفاح ، ويتشكى من رطوبة الليل ، وفى الاماسى كانت الريح تحمل رائحة المستنقعات من كامبانيا .

كان تامارينسكى ابن شماس . وقد مزق ابوه نفسه وهو يرتل الانجيل فى القداديس * فى حضرة الامبراطور باول . وكان اصدقاء تامارينسكى يعزون الى هذا الظرف صحة الرسام الواهية ، وقد ولد بعد هذا الحادث بسنة .

---

* جمع قداس — المترجم .

كان تامارينسكى متصاحبا مع النحات الدنماركى الشهير ثورفالدسون ، المنافس للنحات الايطالى كانوفا ، والذى كان يعيش فى روما فى ذلك الحين .

وكان ثورفالدسون قد فرغ لتوه من تمثال نصفى للورد بايرون . وكانت روما كلها تتحدث عن زيارة هذا الشاعر الانجليزى للمدينة قبل وقت وجيز .

وكان كيبرينسكى يحتفظ فى قلبه منذ ايام بطرسبورغ بذكرى عن بايرون . وكان ينعى على القدر بمرارة انه جاء به الى روما بعد رحيل بايرون عنها . وكان يحسد حتى خدم الحانات الذين رأوا البريطانى الجميل .

اقنع كيبرينسكى تامارينسكى بأن يزورا ثورفالدسون سوية لمشاهدة تمثال بايرون والتحدث عن الشاعر .

فى ذلك الحين كان كيبرينسكى يرسم لوحات فى مواضيع رمزية «تابوت اناكريون» و«الغجرية حاملة غصن الآس» . وكان يرسم بخمول محاولا ان يثير اعجاب الجمهور الايطالى بعذوبة الالوان ونعومة لمسات الريشة .

وأطريت اللوحات ، لا سيما «تابوت اناكريون» . حتى ان الشاعر الايطالى غوتى تغنى بها فى ابيات غثة . ولكن كل ذلك لا يبل الغليل ، فقد كانت الاطراءات تفتقر الى التأثر الصادق ، كما ان اللوحات نفسها كانت تفتقر الى لعبة الالوان الحية والريشة الطليقة .

وخلفت زيارة كيبرينسكى لثورفالدسون مرارة غاية فى الشدة وفرحا .

فقد كان الدنماركى الاشقر الشعر — الكسول والمهمل فى العادة — غاضبا فى ذلك المساء ومنفعلا .

بينما كان كيبرينسكى وتامارينسكى يصعدان السلّم الحديدى الصغير الى استوديو ثورفالدسون وثب من الباب رجل بدين ، ومرق بكيبرينسكى يهوى بقبعته وجهه العرق ، وكاد يوقعه ارضا . وعرف كيبرينسكى فى شخصه نحاتا ايطاليا كان مشهورا بتماثيله المصنوعة بحذاقة والخالية من الحياة .

وفجاة انفتح باب الاستوديو على سعته ، وظهر فيه ثورفالدسون .

– باسنانى انحت المرمر خير من ان تنحت انت بالازميل .

صرخ بذلك فى اثر النحات اللائذ ، وصفق الباب .

تريث كيبرينسكى قليلا ، ودق الباب بحذر . فتح الخادم الباب . كان ثورفالدسون يذرع الاستوديو بسرعة . وكان كاموتشينى – الرسام التاريخى المعروف فى روما – يجلس على الاريكة وفى يده قبعة مستديرة يضحك ناظرا الى ثورفالدسون .

– انا مندهش كيف يمكن ان يضحك انسان مثقف فى مثل هذه اللحظة !

قال ثورفالدسون ذلك والتفت . وزايل الغيظ وجهه بسرعة . وبعد دقيقة كان يصب النبيذ فى الاكواب ، ويطرد كلابا شعثاء كانت تخدش باظفارها صدارات الضيوف المخملية .

وتحادثوا عن النحت بحيوية . وقال كيبرينسكى ان مرمريات الفاتيكان ميتة ، ولا تترك التاثير الذى تتسم به ابداعات الفن العظيمة .

– يا صديقى الروسى ، – قال ثورفالدسون ذلك ضاحكا ، ناظرا الى النبيذ من خلال الضوء – يا صديقى الشهير ، اسمح لى بان اريك فى هذه الليلة هذه المرمريات ، وستغير حكمك المستخف .

فهتف كيبرينسكى : – كيف ؟ فى الليل ؟

قال ثورفالدسون بمكر :

– لا نريد ان نفشى سرنا قبل الاوان !

وابتسم كاموتشينى مجاملة .

وهتف ثورفالدسون :

– لا تجوز اهانة المرمر ! لا يمكن ان يكون هناك احسن من المرمر للتعبير عن صفاء الجسم الانسانى . وهو رقيق جدا بالنسبة ليدى . وانا انحنى اجلالا امام ازميل كانوفا النبيل . لقد تعودت منذ الطفولة على ان انحت التماثيل من الخشب . وكنت اساعد ابى .

وابى ايسلاندى ، نحات على الخشب فى كوبنهاغن . وكان يصنع تماثيل خشبية لمقدمات السفن . كان فنانا رديئا ، اسوده الخشبية كانت شبيهة بكلاب سمينة ، اما ناريداته * فاشبه ببائعات السمك .

وضحك ثورفالدسون .

– كان ابى مغتما جدا لعدم مطاوعة العمل له . وفى المساء قبل عدة ساعات من مولدى كانت امى جالسة وراء المغزل . وكانت تنتظر المخاض ، وكانت مشتتة الفكر فنسيت عقد الخيط على المغزل . وهذا يعتبر عندنا ، نحن الدنماركيين ، فالا حسنا . وقد قالت امى لابى بعد ان ولدت : «لا تحزن ، يا بيتر ، فقد نسيت عقد الخيط على المغزل ، ومعنى ذلك ان ولدنا سيجلب لنا السعادة» . فقال ابى : «انا لا اعرف معنى ذلك» . فردت امى : «وانا ايضا لا اعرف . ولكننى اظن ان السعيد هو الذى يوفر السعادة للآخرين» .

وصب ثورفالدسون نبيذا لكيبرينسكى :

– اشرب ! جميع الامهات يخطئن حين يتحدثن عن اولادهن . وقد اخطات امى ايضا فى تصورها عنى . وانا اروى لك ذلك ، يا صديقى الروسى الشهير ، لكى اورد كلمات امى الساذجة عن السعادة . انا اغبطك . فلا بد انك انسان سعيد بلا هم . انا اعرف اعمالك فى بطرسبورغ . ولهذا اشرب ، ولا تسالنى عن تمثال بايرون النصفى . فانا لا اريه لكم .

– لماذا ؟

– سنتحدث عن ذلك فى طريقنا الى الفاتيكان .

ونهض ثورفالدسون ، وقال :

– احلولك الليل لدرجة تكفى لمشاهدة التماثيل القديمة .

وذهل كيبرينسكى . وخرجوا . كان ليل روما مثقلا بالظلمة والاضواء والدمدمة المتلاشية لعجلات العربات ، ورائحة الياسمين .

---

* واحدة ناريده ، وهى حورية بحرية فى الاساطير الاغريقية . **المترجم** .

سأل كاموتشيني :

— ولماذا لا تريد ان ترى لنا تمثال بايرون النصفى ؟ امن المعقول اننا لا نستحق ذلك ؟

توقف ثورفالدسون عند حانوت فواكه ، واشعـــل غليونه من شمعة سميكة ملصوقة على المنصة . كانت حزم من الذرة اليابسة تتدلى بين عناقيد البرتقال . قال ثورفالدسون :

— لا تزعلوا ، يا اصدقاء لن أريكم بايرون لان هذا العمل ناقص ، ولا يعبر عن روح الشاعر . عندمـــا دخـــل بايرون الى استوديواى سررت بشدة كما يسر الاطفال الايسلنديون بشمس الصيف بعد الشتاء . وكنت اغنى وانا اعمل رغم ان بايرون كان وجهه طوال الوقت فى حركة . ولم يستطع ان يسكن لحظة واحدة . وكانت تتفجر آلاف التعابير من ذلك الوجه الجميل ، تماما كما كانت تتفجر من شفتيــــه آلاف الكلمات المرحة تارة ، والحادة أخرى ، والحزينة تارة ثالثة . وقد لمحت له بذلك ، الا ان ذلك لم يجد . وعندما انتهيت من التمثال القى بايرون نظرة خاطفة عليه ، وقال : «انت لم تصورنى ، بل صورت انسانا مرفها . انا لا اشبه تمثالك» فسألته : «ما الضير اذا كان الانسان سعيدا ؟» فقال وقد امتقع وجهه من الغيظ : «يا ثورفالدسون ، ان السعادة والرفاه مختلفان اختلاف المرمر عن الصلصال . والحمقى او ذوو النفوس الواطئة وحدهم يستطيعون ان يبحثوا عن الرفاه فى زماننا . امن المعقول ان وجهى خال من اى مسحـــة تدل على المرارة والشجاعة وعذابات الفكر ؟» انحنيت له واجبت : «انت على حق . لقد خاننى ازميلى . كنت مسرورا وانا انظر الى راسك ، والسرور غشى على عينى» . قال بايرون : «سنلتقى مرة اخرى» وصافحنى وخرج . وقبل ايام عرض علىّ احد الاثرياء الروس الف تسيخين ثمنا للتمثال .

فسأل كيبرينسكى بحيوية : — وماذا حصل ؟

— لا شيء . قلت له : «لو عرضت علىّ ، ايها السيد ، نقودا لتحطم التمثال لقبلتها برغبة . فانا لا ابيع اخطائى» .

واخذ ثورفالدسون يضحك . وصمت كيبرينسكى . فان كل ما قاله ثورفالدسون آلمه . فان هذا الدنماركى قد مس جرحا مفتوحا .

وفكر كيبرينسكى : «وهل انا اقدم الآن السعادة للكثيرين ، كما كنت سابقا ؟ أمن المعقول ان الحمقى وحدهم يشيدون رفاهية حياتهم ؟»

وقطع هذه الافكار وصولهم الى الفاتيكان . قدم ثورفالدسون للبواب ترخيصا من الكاردينال .

وعلى ضوء شمعة شاحبة ساروا فى القاعات المعتمة المرنّة ، حيث تحيا منذ قرون التماثيل والفريسكات * واللوحات والنقوش القليلة البروز . وكان راهب عجوز اصلع يسير وراء ثورفالدسون .

توقف ثورفالدسون وسط قاعة عريضة كانت المرمريات فيها تلوح بلون ابيض باهت .

— ايها الاب !

نادى ثورفالدسون الراهب بصوت غير عال .

اقترب العجوز . تناول ثورفالدسون من يديه مشعلا لم يلاحظه كيبرينسكى من قبل ، وقرب منه الشمعة .

تصاعد لهب أحمر نحو السقف ، والتمعت فجأة تحت الجدران تماثيل اضاءها النور الخافق .

وقال ثورفالدسون بصوت واطئ :

— انظروا الآن !

وقف الفنانـــون بلا حراك . وتمعن كيبرينسكى فى لعب النار الغامض على الحجر الدافئ . وجاهد فى ان يثبت فى ذاكرته حركات الظلال . فقد كانت تضفى حياتية غير اعتيادية على وجوه الابطال والآلهات المرمرية . واستولت عليه الرعشة الروحية المنسية منذ زمان والتى كان يعرفها منذ ايام بطرسبورغ .

سأل ثورفالدسون بصوت خافت :

— حسنا ، أليس الحجر ينبض بالحياة ؟

اجاب كيبرينسكى : — ينبض .

وكرر تامارينسكى ذلك ايضا .

---

* الفريسكو اللوحات الجدارية والسقفية من الجص الملون . المترجم .

وقال ثورفالدسون :

— يا صاحبىّ ، بهذا الشكل فقط تولد النماذج من النحت القديم ، وتخلق فى طوايا روحنا قوانين المهارة .

وقف الفنانون بلا حراك . صمتوا . وهسّت نار المشعل مضيئة القاعات المترامية .

لم ينم كيبرينسكى طوال الليل . كانت النواقيس تدق كما هى دائما ، وقلبه يتوجع من الدموع .

وسأل كيبرينسكى نفسه : «أين وفى اى الطرق فقدت قوانين المهارة ؟ وهل ساكون حرا من جديد ؟» الا ان هذه الفكرة غرقت فى النعاس ، وفى رغوة البيتين القديمين المنسيين :

القلب الرقيق كله فى غرام وجراح ،
يخفق من منتصف الليل حتى نجمة الصباح .

وغفا الرسام المتعب . وكان الفجر يتصدع فوق روما .

ولم تمر الهزة التى عاناها فى قاعات الفاتيكان دون ان تخلف اثرا . من جديد اخذ كيبرينسكى بنفس التأثر السابق يعمل فى صورة الامير غوليتسين ، وهى من اكثر اللوحات شاعرية فى فن الرسم الروسى .

وصور كيبرينسكى بنفس النفاذ هذا الارستقراطى الصوفى ، الصديق الشخصى للامبراطور الكسندر .

وقد رسم كيبرينسكى هذا العمل فى درجات لون زرقاء ومخملية وضاربة الى اللون البنى . وكانت تشاهد من خلف الامير الشاحب الجالس روما وقبة كاتدرائية بطرس ، واشجار داكنة فى السماء المغطاة بسحب رعدية منفوشة كما فى لوحات الاساطين القدامى .

ورسم كيبرينسكى الصورة الثانية — للاميرة تشيرباتوفا — بالوان ناعمة براقة بمثل نعومة الحرير الملقى على كتفى الاميرة . ان كل ما تبقى فى كيبرينسكى من اللقاءات اليومية مع النساء قد تجسم فى مثال تشيرباتوفا — السهوم والرقة ونقاء العفاف .

كانت هذه ، فى الغالب ، اعمال كيبرينسكى الاخيرة ، اذا لم نحسب الصورة الرائعة لغولنيتيشوفا-كوتوزوفا وبعض الرسوم . فان كيبرينسكى للمرة الاخيرة قد استحضر بريشته ومن اعماق مخيلته ابطالا ونساء محبوبين ومحبوبات ، وكانوا قد فارقوا الحياة الحقيقية . وكان ذلك آخر توهج قبيل النهاية .

وبعد ذلك راح كيبرينسكى يرسم اشياء حلوة المظهر ، زائفة — اصحاب اطيان صاحبات ابهة كاذبة ، واثرياء مضجرين ، ممثلى الاعيان اللامبالين . وحاول ان يستبدل السمات الحادة السابقة بتصوير تفاصيل الثراء . فقد كان يظن بسذاجة ان الثياب والخواتم والمقاعد الوثيرة والغلايين يمكن ان تقول عن الشخص اكثر مما كانت تقوله من قبل ريشته الموهوبة .

واستبدلت حركة الاشخاص الحية فى الصور باوضاع متخشبة بلهاء . واصبحت الاصباغ قذرة كدرة تصيب العيون بالغثاثة . وانثالت الطلبات بالمئات . وتراكمت فى جرار المكتب الاوراق النقدية اكواما ، ورن الذهب .

فى ذلك الحين وقع حادث غامض القى ظلا اسود على كل حياة كيبرينسكى التالية .

بعد البحث وجد كيبرينسكى للوحته «تابوت اناكريون» موديلا جميلة . وكانت لها ابنة صغيرة تدعى «ماريوتشا» . وقد رسم كيبرينسكى الام والابنة معا .

وذات صباح وجدت الموديل ميتة . ماتت من الحروق . كانت تغطيها جنفاصة مبللة بزيت التوربنتينا ومحروقة .

وبعد بضعة ايام توفى فى مستشفى المدينة «سانتا سبيريتو» خادم كيبرينسكى ، وهو ايطالى شاب جسور ، بمرض غير معروف .

وسرت فى روما شائعات مبهمة . واكد كيبرينسكى ان الخادم هو الذى قتل الموديل . وبدأت شرطة روما المتوانية التحقيق بعد وفاة الخادم ، وبالطبع ، لم تثبت شيئا .

وصار اهالى روما وبعدهم بعض لرسامين يقولون ان الذى قتل الموديل هو كيبرينسكى وليس الخادم .

وانقلبت روما على الرسام . وعندما كان يخرج الى الشارع كان الصبيان يرجمونه بالحجارة من وراء الاسيجة ، ويصفرون ، اما الجيران – من ارباب الحرف والباعة – فكانوا يهددونه بالقتل .

ولم يحتمل كيبرينسكى الملاحقة ، فهرب من روما الى باريس .

قبل مغادرته الحق اليتيمة الصغيرة ماريوتشا بمدرسة للفتيات اليتيمات ، بـ«كونسرفاتور» وعهد بها الى راهب كاردينال . وترك نقودا لتربية الفتاة ، وطلب الى بعض الرسامين الذين لم يصدوا عنه بعد الاهتمام بها ، وابلاغه بمصيرها .

فى باريس لم يقبله الرسامون الروس الذين كانوا اصدقاءه فى السابق . فان الشائعة عن القتل قد بلغت هذه المدينة ايضا . وكانت الابواب تصفق امامه عداوة . واستقبل المعرض الذى اقامه فى باريس بعدم اكتراث . ولزمت الجرائد الصمت حوله .

لقد نُبذ كيبرينسكى من المجتمع . فانطوت نفسه على مساءة . لم تكن هناك من عودة الى ايطاليا . وباريس لم ترد ان تلتفت اليه . ولم يبق فى الدنيا غير مكان واحد يمكن ان يلوذ به لينسى الايام الرهيبة ، ويعود الى العمل بالريشة من جديد . وكان هذا المكان هو روسيا ، الوطن المهجور الذى شهد تفتحه ومجده .

وفى عام ١٨٢٣ عاد كيبرينسكى الى بطرسبورغ متعبا محنقا .

اخذت سماء بطرسبورغ الرطبة تدمل الجراح ببطء . كان الاصدقا' لا يعرفون عم يتحدثون . ولم يستنطق احدهم كيبرينسكى حول ايطاليا . وهتافاتهم المتكررة المرحة عن عمد عند التقائهم به «باه ، يا اوريست ، انت ما تزال كما كنت !» كانت تضايقه مضايقة فتاكة .

وادرك كيبرينسكى ان الصداقة تعانى الونى من طول الفراق . كان الماضى يذكر بحسرة ، واحيانا بعدم اكتراث وضيق .

والحدائق والنيفا الباردة والسماء فقط بقيت كما كانت ، وكانت صداقتها لا تنفصم وخالدة . اذ لم تكن تطلب مشاعر مقابلة .

واشتغل كيبرينسكى متلقيا طلبات معتبرة ، وتردد على البلاط ، حيث رسم صورة عن التمثال النصفى الذى نحته ثورفالدسون للامبراطور الكسندر الاول ، وكان قد مضى على وفاته وقت قصير . وبين الحين والآخر كان راعو كيبرينسكى واصدقاؤه يزورونه .

ولكن كل ذلك لم يكن يبل الغليل . زال البريق من عينيه ولاح فيهما ما ينم عن القلق ، وضعف صوته . وفى الصباح كان الرسام يستلقى ساعات فى السرير غير مفكر بشىء ، وغير مصغ الى شىء .

واحيانا كان كيبرينسكى ، وهو يلقى على القماشة لونا رماديا او ابيض ورديا كما لو انه لم يلاحظ درجته اللونية يلقى الريشة فجاة على الارض بضراوة ، وينتزع ممطره من المشجب ، ويخرج راكضا الى الشارع . وكان يسير غير منتبه الى الناس الى اطراف المدينة ، حيث كانت بيوت صغيرة كابية تتعفن فى الضباب ، ولا يعود الا فى الليل .

وكان ذلك يحدث كلما كان يذكره بايطاليا شىء من الحياة البطرسبورغية المحيطة به . وكان ينتابه كوجع ممض فى القلب ، وبشكل متزايد حنين الى الهواء المشرق ، والى الاعمدة القديمة الساخنة من الشمس ، والى رائحة الياسمين . وكان كيبرينسكى يُرى اصدقاءه بعناد غير مفهوم الصور التى رسمها فى ايطاليا ، ويطالب بالثناء عليها . وكان كل ما عمله فى ايطاليا يبدو له رائعا . كان الاصدقاء يتجهمون ، ويرفعون اكتافهم .

وكان كيبرينسكى آنذاك يرسم لا بشكل جيد ولا ردىء ، ان شيئا انطفأ فى داخله . وذات مرة جاء اليه رسول بدعوة من بنكندورف يطلب فيها هذا الكونت من كيبرينسكى ان يرسم صورا لاطفاله .

هزّ كيبرينسكى ذراعه ، ووافق . فقد تساوى لديه الآن ان يرسم بوشكين او بنكندورف ، كيوخلبيكر او اراكتشييف . اذ كان كيبرينسكى يحاول اخفاء ضعفه باستخفاف متكلف ، ويسعى الى ان يطرد من ذاكرته الكلمات التى قالها منذ سنين عديدة حين نُصح بأن يرسم صورة اراكتشييف :

— ينبغى الا يرسم بالالوان بل بالوحل والدم ، ومثــــل هذه الاشياء لا توجد فى لوحة الوانى .

من هذه السنــوات الاخيرة التى قضاهــــا كيبرينسكى فى بطرسبورغ لا تخطر على ذاكرته الا حادثتان : فيضان عام ١٨٢٤ والعمل فى صورة بوشكين .

فى يوم الفيضان لم يذكر كيبرينسكى ايطاليا مرة واحدة . فى الصباح استيقظ على قرقعات كقصف المدافــع هزت الجدران . وكانت الريح تصفر فى الدهاليز المظلمــة للبيت الخالى . فتح كيبرينسكى باب المرسم على مصراعه واخذ يضحك ، فقد هبت عليه فورا وهو مايزال حارا من النوم رائحة مياه البحر . ووراء النوافذ كانت سماء متلبدة سوداء تنطلق نحو الشرق بلا انقطاع .

— زوبعة !

هتف كيبرينسكى ، وركض نحو النافذة .

كانت الزوبعة تعربد فوق بطرسبورغ مثل شباب عائد . وكان مطر نادر يسوط النوافذ . وكانت النيفا تنتفخ امام الابصار وتطفح عبر السدود الغرانيتية . وتراكض الناس على طول البيوت واضعين ايديهم على قبعاتهم والريح تخفق بمعاطفهم السوداء . وكان ضوء غامض خبيث وبارد يتضاءل مرة ويتوهج اخرى حين كانت الريح تنشر فوق المدينة دثار السحب .

هبط كيبرينسكى الى الشارع . كان قصف المدافــع يتردد بفزع وتكرار متزايدين . انطلق فرسان مبللون وثبا على الارصفة الغارقة ناثرين الرشاش بصخب . والزوارق المصمغة تتارجح على مرابطها قرب الاسيجة الحديدية . كانت النيفا تسيل ككتلة من الماء الحديدى ، وتهدر هديرا مريعا عند دعائم الجسور . وكانت البيوت مضاءة بالشموع .

وداعبت نشوة غامضة نفس كيبرينسكى — كان يرتعش من البرد والانفعال . وعاد الرسام عجولا الى البيت ، واشعل النار فى الموقد الحديدى المستدير ، واختطف الالوان . ما هو افضل شىء ينقل به لون هذا اليوم الغزير المطر ؟ واختار كيبرينسكى اللون البنى .

وخط الرسم بريشة وزة مطرطشة عصبية . وهكذا ظهرت لوحة «الفيضان» .

عندما رســـم كيبرينسكى صورة بوشكين ، كان هذا الشاعر مشغول الفكر ، رغم أنه كان يحاول ان يمزح .

وقرر كيبرينسكى ان يظهر كل سحر شعر بوشكين لا فى وجه الشاعر الذى كان فى ذلك الحين متعبا ، بل ومصفرا بعض الشىء ، بل فى عينيه واصابعه . فقــد اعطى الرسام العينين من الصفاء والبريق والطمانينة ما يتعذر على الانسان تقريبا ، واعطى لاصابع الشاعر رهافة عصبية وقوة .

— انت تداهننى ، يا اوريست .

قال بوشكين ، وهو ينظر الى الصورة وقد كملت .

وذات مرة قرأ بوشكين لكيبرينسكى ابياتا عن ايطاليا وكأنما قد تحسس حنين الرسام الى «بلاد الالهامات السامية» التى غادرها قبل وقت غير بعيد :

هناك ، حيث غنى توركفادو الجبار
وحتى الآن تتردد ثمانياته
فى الظلام الابدى لموج الادرياتيك .
هناك حيث رسم رافائيل ،
وفى ايامنا هذه يبعث ارفيل كانوفا
الحياة فى المرمر المطواع .
وبايرون المعذب الصارم
كان يتعذب ويحب ويلعن .

اصغى كيبرينسكى مطرقا براسه ممسكا بالريشة على القماشة . فى ذلك الوقت كان يخطط شفتى الشاعر ، وقد اخلت قراءة الشعر بخطهما المغلق الشبيه جدا بخط شفتى شاب .

وقال كيبرينسكى دون ان يرفع راسه :

— الكسندر سيرغييفيتش ، اود لو آخذ صوتك معى الى قبرى .

— كفى ، يا اوريست — اجاب بوشكين ، وفجأة اخذ يهتف بصوت ناصل كذلك الذى تهتف به البائعات الفنلنديات — التوت ، التوت ، يا من يشترى التوت !
وضحك كيبرينسكى ، وضرب الريشة على القماشة .

فى عام ١٨٢٧ رحل كيبرينسكى الى روما مرة اخرى . فقد كان يبدو له دائما ان المجد السالف سيعود اليه فى روما . ولكن الحياة كانت تقترب من النهاية ، والموهبة قد دمرت .

وضجر كيبرينسكى فى روما . كان ينتظر احداثا ، وتغيرات . كبرت ماريوتشا ، وصارت فتاة ممشوقة حلوة . ووقع كيبرينسكى فى حبها ، ولكنه اخفى ذلك طويلا عن نفسه وعن ماريوتشا ، وعن اصدقائه القليلين .

ومن الضجر والقلق الغامض اخذ الرسام يعاقر الخمرة . كان العمل يتعبه بسرعة ، وبدونه لا يحصل على نقود . فكان كيبرينسكى يعمل مثل مئات الرسامين الايطاليين-الحرفيين الذين ينقلون نسخا من رافائيل وكوريدجيو وميكالنجلو للاجانب الاغنياء . فكان غالبا ما يرسم ، حسب الطلب ، صورا لاناس لا يثيرون اهتمامه ، ويتثاءب من الملل . كانت روما كعهدها السابق ، رغم احتضار الرسام البطىء . «نفس الريح الدافئة ترنح اعالى الاشجار ، ونفس رائحة الورود ، وكل ذلك هو الموت» .

وكانت ساعات الشفق المهيبة تتضرج ملتهبة كما كانت من قبل ، والرسامون يخرجون لمشاهدتها من تل بينشيو . وقد احب غوغل * الضوء الرهيب وعتمة اماسى روما . وكان يشاهد الشفق مع الرسامين ، وتهزه الرعدة حين ينادونه فكان يهتف :

— لا تضايقونى ولو لحظة واحدة ان اكون انسانا رائعا فى هذا العالم الخالى من الرقة .

وما برحت روائح العفونة والنبيذ تفوح من الارضيات الحجرية

* غوغل — كاتب روسى عظيم من القرن التاسع عشر . المترجم .

للحانات التى كان كيبرينسكى يلتقى فيها بصديقه الجديد الرسام النقاش يوردان . كان يوردان يحب كيبرينسكى ، ويسميه «النفس السمحاء» .

وكان يوردان قضى السنين العشر التى عاشها فى روما على نقش لوحة «التجلى» لرافائيل فى الارضية الاجرية لغرفته قرب طاولة النقش كان يحرك حفرة عميقة بقدميه . وكان غوغل يحب ان يحدث الرسامين عن هذه الحفرة . وكان الرسامون يجلون غوغل ، ولكنهم كانوا يخجلون منه ، فقد كان هذا الكاتب لا يحب العشرة صموتا .

فى ذلك الحين كان ايفانوف قد رسم لوحته «ظهور المسيح للناس» .

وكان كيبرينسكى يرتاد الحانات ، ويحمل معه خبزا يطعم به الكلاب السائبة . وكانت الكلاب تسير وراءه قطعانا ، ولكن اصحاب الحانات لم يكونوا يسمحون لها بالدخول . وعند ذاك كانت تقبع عند الباب تنتظر بلهفة هازة ذيولها .

وكان اصحاب الطلبات يفتشون عن الرسام مهتدين بقطعان الكلاب القابعة عند هذه الحانة او تلك . وكانوا يجدونه وراء طاولة صفت عليها الزجاجات . وكان دائما يطلب من النادل شمعة ، ويضعها امامه ، وقبل ان يحتسى النبيذ كان يطيل النظر اليه من خلال الضوء .

ذات مرة قال ليوردان :

— من المؤسف ، يا صديقى العزيز ، اننا لا نستطيع ان نرسم اللوحات بالنبيذ . والا فاننا سنكون حينذاك قد ادخلنا الكثير من الضوء والرعشة فى مبدعاتنا .

اجاب يوردان الرقيق :

— ان اصباغك ، يا اوريست اداموفيتش لا تتنازل للعبة النبيذ .

تعبس كيبرينسكى بانزعاج ، واستدار . ثم قال بصوت كامد :

— ما كان اضحى فى خبر كان .

لم يكن كيبرينسكى يعرف ما تبقى له ان يفعل فى الحياة . لقد كان يعيش وحيدا ومنغصا . واذ ذاك ارتكب كيبرينسكى المعذب الغلطة الاخيرة بزواجه ماريوتشا . لم تكن الفتاة تحبه ، ولكنها

كانت متعلقة به كرجل منقذ لها من الفاقة والجوع . ولكى يتزوج كيبرينسكى ماريوتشا اعتنق الكاثوليكية .

وسافر كيبرينسكى مع ماريوتشا الى نابولى .

واضحت الحياة لفترة قصيرة اكثر اشراقا . فقد كان الرسام المريض الحزين يحس فى كل ساعة بحضور ايطالية شابة حسناء الى جانبه . وكانت تقرأ له الكتب عن تاريخ ايطاليا وابحاثا عن فن الرسم واشعارا .

كان كيبرينسكى يتابع كل حركة لها محاولا ان يقى ماريوتشا من اصغر المنغصات الدنيوية ويبعد عنها الملل .

وجرى انفاق الفلوس بكثرة . وكان كيبرينسكى من اجل كسب المال مستعدا لكل شىء . واخذ يرسم المناظر الطبيعية الحلوة التى كانت على الموضة فى ذلك الوقت وفيها يظهر بركان فيزوف داخنا ، ويبيع فى بطرسبورغ استنساخات للوحات الايطاليين الشهيرين ، ويتذلل امام الكونت شيريمتييف الذى كان يمده بالنقود ، وكان يكتب له رسائل بائسة منظومة بالشعر وكأنه مضحك بلاط :

الصيف يوشك ان يعود
وانا بغير نقود .

وطلب من بنكندورف قرضا بمبلغ عشرين الف روبل لمدة خمسة اعوام . والمح له بانه كان ينبغى ان يقلد وساما على خدماته السابقة فى الرسم ، الا ان بطرسبورغ صمتت .

وسار تدهور الفنان بحتمية لا مرد لها . ومن يعرف هل كان كيبرينسكى يدرك كل عمق تعاسته الروحية التى يسببها ضعف الارادة والركض وراء النجاحات الدنيوية وانعدام الاذواق والاراء الراسخة ؟

واذا لم يكن يدرك ذلك فانه على حال كان يشعر كيف كان يقوى فى داخله انسان تافه رذيل ، ويتلاشى فى ضباب الماضى مثال الشاب العبقرى المرح ، ابن قرن الرومانسية .

فى نابولى رسم كيبرينسكى ، مستجمعا قواه الاخيرة ، صورة

مفعمة بالشاعرية الرفيعة لـ«غلينيشيفا-كوتوزوفا» . وقد برزت هذه الصورة وسط اعماله الرخيصة المتكلفة كآخر ألق للماضى .

وسافر كيبرينسكى من نابولى مع ماريوتشا الى فلورنسا وبولونا ، وعاد من هناك الى روما .

وكان ينظر بعينين خامدتين الى هاتين المدينتين الخاليتين المهيبتين ويتجول فى الشوارع التى نما فيها العشب الزاهر دون ان ينساق مع الذكريات . فان سحر الماضى لم يعد الآن طوع بنانه . لقد كان ينشد السكينة والخمرة وساعات النوم الخلية التى تؤثر فيه تاثير الدواء ، وتساعده على نسيان رعب السنوات الاخيرة .

اقام كيبرينسكى فى روما فى قصر كلوديوس القديم ، حيث كان يسكن الرسام الفرنسى لورين فى زمانه .

وكان كيبرينسكى يفرط فى الشراب ، وفى كل ليلة كان يعود سكران جالبا معه جلاّس الحانات المريبين .

يكتب يوردان : «ولان زوجته الشابة لم تكن تريد ان ترى الرسام العظيم فى هيئة مزرية فقد كانت لا تاذن له بالدخول فى الغالب ، فكان يقضى ليلته تحت واجهة بيته ذات الاعمدة» .

فى ليلة من تلك الليالى فى تشرين الاول (اكتوبر) ١٨٣٦ اصيب كيبرينسكى بنزلة صدرية . وقاوم المرض عدة أيام ، ثم سقط طريح الفراش .

استدعت ماريوتشا الطبيب العجوز ريكاردى الذى كان يعالج جميع الرسامين الروس .

دخل هذا العجوز الاصلع الجم الحركة الشبيه بطائر محنط مغبر يمشى مشية ناطة الى الغرفة الواطئة حيث كان يرقد كيبرينسكى . وكانت البرودة تبعث من الجدران الحجرية العارية . القى ريكاردى نظرة فيما حوله ، ورفع حاجبيه . لم تكن معلقة فى غرفة الرسام الشهير غير لوحة واحدة هى صورة لم تكمل لماريوتشا تصورها وهى جالسة قرب النافذة .

وكان كيبرينسكى فى هذيان الحمى .

وترامى من غرف فارغة نائية صدى خطوات مستعجلة وكانت ظلمة كثيفة تستقر فى الاركان وفى الدهاليز الحجرية الطويلة . لقد كان السكن فى هذا البيت موحشا وباردا .

وتسمع ريكاردى المريض . كانت الريح الخريفيـــة الليلية تعصف فوق روما ، والقصر القديـــم مملوءا بطنين مخيف وترنيم خافض ترسلهما المداخن الحجرية ، واصطفاق صفاقات النوافــذ ، وصريف مصاريع الابواب .

نظر ريكاردى طويلا فى وجه كيبرينسكى الشاحب ، وازاح عن جبينه الشعر الداكن اللامع من العرق . وقال لماريوتشا :

— يا سنيورا ، زوجك مصاب بحمى صدرية . وضجيج الريح تعيقنى عن تسمعه بكل دقة . انه فى حالة سيئة جدا . يجب ان يفصد الدم منه .

صمتت ماريوتشا . وكانت تخاف البقاء وحدهـــا مع رجل فى هذيان الحمى صار غريبا تماما فجاة .

وكان كيبرينسكى فى هذيانه يتكلم بالروسية . ولم تكـــن ماريوتشا تفهم شيئا تقريبا . واخذت تبكى . وافاق كيبرينسكى ، وتفرس فى ريكاردى ، وامسك يده ، وقال بخفوت شديد :

— الكسندر سيرغييفيتش * — وسالت الدموع على خديه غير الحليقين — شكرا ، . . كيف جئت من تلك المسافة البعيدة ، يا عزيزى . . . الليلة سيئة الطقس بهذا الشكل ، وانت لم ترد ان تتركنى . . .

انحنى ريكاردى على المريض .

وسال كيبرينسكى بهلع :

— من انت ؟ هل انت حلاق مطبب ؟

قال ريكاردى ببطء :

— انا دكتور . أفق على نفسك . انا دكتور . تكلم .

---

* اى الشاعر الروسى العظيم بوشكين . **المترجم** .

قال كيبرينسكى بهدوء :

— اشعر بثقل فى دمى . الاصابع جمدت فى عروقى . افصد دمى ، فهو لا يدفئنى ، بل يبرد قلبى .

قال ريكاردى :

— رائع !

همس كيبرينسكى :

— لا اراك فاهما . الناس العظماء ، النبلاء اللامعون فكرا وموهبة كانوا يمجدون اسمى . جوكوفسكى قبل راسى . وبوشكين نظم لى قصيدة ، والعسكريون المشاهير اعتبروا يدى موثوقـــة كالنصال الفولاذية .

ورفع ذراعه النحيلة ، واطال النظر اليها فى الضوء . اسرع ريكاردى بالضغط على كوع كيبرينسكى ، ووضع طاسة قصديرية تحته ، وغرز فى الجلد مشرطا حادا . فانبجس دم داكن .

— غفرانك ، يارب — قال كيبرينسكى ، وزفر زفرة عميقة . — لا احد يعرف . . انا وحدى اتذكرها ، الكلمات الحلوة ، حب قلبى .

وبعد ان صمت برهة قال خافت الصوت :

القلب الرقيق كله فى غرام وجراح ،
يخفق من منتصف الليل حتى نجمة الصباح .

ومرة اخرى سالت الدموع على خديه .

— يا اصدقائى !

هتف كيبرينسكى فجاة وبشكل وحشى . وقعد على الفراش . انكفات الطاســـة القصديرية ، وسال الدم منهـــا على المفرش والوسادة — يا اصدقائى .

وسقط على الفراش ، على بقع الدم ، وأخذ وجهه يمتقع ببطء وجلال . كانت الشموع ترتعش بهـــدوء . ومس ريكاردى شفتى كيبرينسكى بخده .

كان القصر القديم يردد عزف الريح مثل فرقة موسيقية وترية هائلة تعزف قداس الموت خفية .

وترامى فى القاعات الخالية صدى خطوات عجلى . ودخل ثورفالدسون مسرعا . ورأى وجه كيبرينسكى المنحول من المعاناة ، من آثار الرذائل والعلل – وجها اكثر روعة من مرمر التماثيل القديمة .

وخلع ثورفالدسون قبعته ، وركع على ركبتيه امام جثمان كيبرينسكى ، وضغط جبينه على اليد المتدلية من السرير .

وكانت ريح الخريف تعصف فوق روما .

١٩٣٦

اسحاق ليفيتان





كانت يدا الرســـام سافراسوف النحيلتان ترتجفان ، فكان لا يستطيع ان يحتسى قدح شاى دون ان يسكب منه على خوان المائدة الخشن . وكانت رائحة الخبز والفودكا تفوح من لحية الرسام الشيباء التى لم تمسها يد العناية .

كان ضباب آذار يخيم على موسكو مثل دخان يمامي يرسلـــه سماور . وكان الوقت غسقا ، وكان الجليد الذى طال رقاده يتقطر فى انابيب التصريف القصديرية . فكان ينخلع بقرقعة ، ويتهشم مخلفا اكواما بما يشبه البلور الصخرى الازرق . وكان هذا البلور يتصدع تحت الاحذية القذرة ويتحول فى الحال الى خنفساء روث .

كان رنين اجراس عيـــد الصيام الكبير يتردد حنونـــا فوق المستودعات الخشبية والازقة المسدودة فى موسكو القديمة ، موسكو الثمانينات من القرن الماضى .

كان الرسام يحتسى الفودكا من قدح صار رماديا من القدم . وكان ليفيتان تلميذ سافراسوف – وهو صبى نحيل فى سترة مرقعة ذات مربعات وبنطلون رمادى قصير – يجلس وراء المنضدة مصغيا الى سافراسوف . وكان سافراسوف يقول :

– ليس لروسيا المعبر عنها . نحن نخجل من وطننا كما كنت اخجل وانا حديث السن من جدتى الفقيرة . . . كانت عجوزا وديعة عيناها الحمراوان ترفان على الدوام ، وعندمـــا توفيت خلفت لى ايقونة سيرغى رادونجسكى . وقالت لى فى كلمتهـــا الاخيرة : «اسمع ، يا حفيدى ، تعلم لترسم بشكل يجعل الروح كلها تبكى من جمال السماء والارض» . اما فى الايقونة فقـــد رسمت اعشاب وزهور – ابسط زهورنا التى تنمو فى الطرق التى غطتها الاعشاب ، وبحيرة نما فيها الحور الرجراج . لقد كانت امرأة على هذا القدر من الدهاء ! وفى ذلك الحين كنت ارسم بالالوان المائية للبيع . وكنت احملها الى المتاجرين الصغار فى ساحة تروبا . وما كنت ارسمه اخجل ان اتذكره . قصور مترفة ذات ابراج ، وبرك يسبح فيها بجع وردى . تفاحة وعار . ومنذ الصبا حتى سنوات الشيخوخة كان علىّ ان ارسم اشياء تختلف تماما عما كان يكمن فى نفسى .



صمت الصبى خجلا . اشعل سافراسوف مصباح الكيروسين . فى غرفة الجار صلصلت خيّاطة الفراء بالمزلاج ، وانشــأ كنارى يصدح .

نحّى سافراسوف القدح الفارغ بحركة لا تصميم فيها .

— لن تستطيــع ان تحصى وتعدد المشاهد التى رسمتهـا لبيترهوف * واورانيباوم ** . نحن ، المعوزين ، كنا ننحنى اجلالا امام العظمة . واحلام مبدعى تلك القصور والجنائن كانت تبث فينا الرهبة . فانّى لنا بعد هذا ان نلتفت ونحب حقولنا الرطبــة ، والاكواخ المائلة والاحراش والسماء الواطئة . انى لنا !

وشمّر سافراسوف ذراعه ، وصب قدحا آخر ، وادار طويلا باصابعه العجفاء . كانت الفودكا ترتج من كركبة العربات المارة فى الطريق طارقــة اياه بسنابك خيولهـــا . وشرب سافراسوف اختلاسا ، وقال غاصا بشرابه :

— فى فرنسا يعمل الفنان الرائع كورو . استطاع ان يستكشف سحرا فى الضباب والسماء الرمادية ، فى المياه الخالية . واى سحر ! اما نحن . . . فعميان ، على ما يبدو ، لا يسر العالم عيوننا . نحن ابوام ، ابوام ليلية — قال ذلك بغيظ ونهض — عشو *** ، تفاهة وعار !

وادرك ليفيتان ان الوقت قد حان لخروجـــه . وكان يريد ان يصيب شيئـــا من الطعام ، ولكن سافراسوف الثمل نسى فى غمرة الحديث ان يسقى تلميذه شايا .

خرج ليفيتان . كان حوذية العربات يسيرون قرب عرباتهم مازجين الثلج بالماء متبادلين الشتائم . وفى البولفارات كانت تنف

* اسم قديـــم كان يطلق على « بيتردفوريتس » وهى مجموعة قصور على الخليج الفنلندى يعتبر ضاحية لبطرسبورغ . **المترجم** .

** اسم قديم لمدينة لومونوسوف الحاليـــة . **المترجم** .

*** العشو : سوء البصر فى الليل . **المترجم** .

الثلج تتعلق على عساليج الاشجار الجرداء ، ومن الحانات يضرب البخار الوجوه ، وكأنه خارج من مغاسل للثياب .

وجد ليفيتان فى جيبه ثلاثين كوبيكا — هدية رفقائه فى مدرسة الرسم والنحت ، الذين كانوا من حين لآخر يجمعونها له لعوزه — ودخل حانة . كانت الآلـــة الموسيقية ترن باجراسها وتعزف «على طريق كالوشسكايا القديم» . مرّ نادل رث الهيئة بالمنصة وكشر عن اسنانه ، وقال لصاحب الحانة بصوت عال :

— قطعة سجق لليهودى الصغير مع خبز منخول .

جلس ليفيتان الصبى الجائع المعدم — وهو حفيد حاخام من بلدة كيبارتا فى محافظة كوفنو — وراء مائدة فى حانة موسكوفية محدودب الظهر يتذكر لوحات كورو . كان الناس القذرو الثياب يصخبون ويغنون اغانى باكية ، ويدخنون التبغ الرخيص القوى ، ويمتصون بصفير سائلا فائرا من صحون مغيرة مصموصـــــة . وكان الثلج الرطب يلتصق على الزجاج الاسود ، والاجراس تتبادل الرنين بغير ما رغبة .

جلس ليفيتان طويلا ، اذ لم يكن له ما يهرع اليه . فقد كان ينام فى غرف الصفوف الباردة فى المدرسة فى شارع مياسنتسكايا ، ويختفى هناك من الحارس الملقب بـ«الروح الخبيثة» . وكانت اخته التى كانت تعيش فى بيوت الناس من بيت الى آخر — وهى القريب الوحيد له — تطعمه بين الحين والآخر ، وترفو السترة القديمة . كان الصبى لا يفهم لماذا هجر ابوه البلدة الى موسكو ، ولا لماذا توفى ابوه ثم امه بتلك السرعة تاركين ليفيتان واخته الى الضياع . لقد كانت العيشة فى موسكو صعبــــة موحشة لا سيما له ، بصفته يهوديا .

— قطعة اخرى من الخبز لليهودى الصغير — قال النـــادل لصاحب الحانة مؤرجحا رجليه كالدمية — يبدو أن ربهم لا يطعمه بشكل جيد .

احنى ليفيتان راسه بانخفاض شديد . كانت لديه رغبة فى البكاء والنوم . كانت رجلاه توجعانه وجعا شديدا بسبب الدفء . بينما ظل الليل يلصق على النوافذ رقائق ثلج آذار السائل .

فى عام ١٨٧٩ نفت الشرطة ليفيتان من موسكو الى البلدة الريفية سالتيكوفكا . فقد صدر امر قيصرى يحظر على اليهود الاقامة فى «العاصمة الروسية العريقة» . وكان ليفيتان فى ذلك الوقت فى الثامنة عشرة .

وفيما بعد يتذكر ليفيتان الصيف فى سالتيكوفكا كاصعب صيف فى حياته . فقد هيمن حر شديد . وفى كل يوم تقريبا كانت الزوابع الرعدية تلبد السماء ، ويقصف الرعد ، وتعصف الريح بالحشائش الجافة تحت النوافذ ، ولكن لم تسقط اية قطرة من المطر .

وكانت ساعات الغسق مضنية بشكل خاص . كان الجيران فى البيت الريفى المجاور يشعلون الضوء فى الشرفة . وكانت فراشات الليل تضرب زجاج المصابيح سحابة وراء سحابة . وفى ساحة الكروكى تتصادم الكرات . وكان طلاب المدارس والفتيات يفشون ويتشاجرون عند انتهاء اللعبة ، وبعد ذلك ، وفى ساعة متاخرة من المساء كان صوت نسائى فى حديقة يغنى اغنية عاطفية حزينة :

صوتى لك حنون وناعم . . .

فى ذلك الحين كانت اشعار بولونسكى ومايكوف وابوختين اكثر شهرة من ايقاعات بوشكين البسيطة . حتى ان ليفيتان لم يكن يعرف ان هذه الكلمات من الاغنية العاطفية هى كلمات بوشكين .

كان فى الامسيات يسمع من وراء السياج غناء المراة المجهولة ، ويتذكر اغنية عاطفية اخرى عن «انتحاب الحب» .

وكان يود لو يرى المراة التى تغنى بهذا الصوت الصداح الحزين ، ويرى الفتيات اللاعبات الكروكى ، وطلاب المدارس المطاردين للكرات الخشبية بصيحات الانتصار حتى سدة السكة الحديد . وكان يود ان يقهقه ويتخابث ويتلاقف الكرة ، ويغنى حتى منتصف الليل ويسمع تهامس الطلاب المنفعل حول الكاتب غارشين الذى كتب قصة «اربعة ايام» التى منعتها الرقابة . وكان

يود ان ينظر فى عينى المراة المغنية – وعيون المغنين دائما نصف مغمضة ومفعمة بالنشوة الحزينة .

الا ان ليفيتان كان فقيرا ، بل ومعدما تقريبا . والسترة ذات المربعات قد تهرأت كليا . وكبر الفتى عليها . كانت يداه الملطختان بالصبغ الزيتى تبرزان من الكمين مثل مخلبى طائر . وقضى ليفيتان الصيف كله حافى القدمين . فاين يظهر بهذا المظهر امام الفتيات المرحات !

وهكذا كان ليفيتان يختفى . اخذ قاربا وراح يطوف فيه فى مجاميع القصب على بركة البلدة ، ويرسم دراسات ، اذ لم يكن يعيقه شىء فى القارب .

كان رسم دراسات فى الغابة او فى الحقول خطيرا . ففى هذه الاماكن كان من الممكن الالتقاء بمظلة زاهية لامراة راقية تقرأ فى ظل اشجار البتولا كتابا للكاتب البوف الذى كان «على الموضة» آنذاك ، او مربية اطفال تقوقىء وهى تحتضن الاطفال . وما من احد كان يحسن الزراية على الفقر بشكل مهين بقدر هؤلاء المربيات .

كان ليفيتان يختفى عن انظار سكان البيوت الريفية ويشتاق الى مغنية الليل ، ويرسم دراسات . وقد نسى تماما ان سافراسوف فى مدرسته للرسم والنحت قد تنبأ له بمجد كورو ، وان رفاقه الاخوين كوروفين ونيقولاى تشيخوف كانوا فى كل مرة يشتبكون على لوحاته فى نقاشات عن فتنة المنظر الطبيعى الروسى الحقيقى . لقد غرق مجد كورو المنتظر دون اى اثر ، غرق فى المرارة من الحياة ومن المرفقين المتهرئين والنعلين المحكوكين .

فى ذلك الصيف رسم ليفيتان كثيرا فى الهواء الطلق ، وبذلك اوصى سافراسوف . فان هذا قد جاء ذات مرة فى الربيع الى المرسم فى شارع مياسنتسكايا سكران . وفى سورة الغضب كسر النافذة المغبرة وجرح يده .

– ماذا ترسم ! – صرخ بصوت باك ماسحا الدم بمنديل جيب قذر – دخان تبغ ؟ روث ؟ عصيدة بلا طعم ؟









ووراء النافذة المكسورة كانت الغيوم تنطلق ، والشمس تستقر برقع حارة على القباب ، والزغب الوفير يتطاير من الهندباء البرية . فى ذلك الحين كانت الهندباء البرية تنمو فى كل افنية موسكو . وصرخ سافراسوف :

— ادخل الشمس على الجنفاصة ! — وفى هذه اللحظة كان الحارس «الروح الخبيثة» يتطلع من الباب بانزعاج — لقد سهوت عن الدفؤات الربيعية ! الثلج ذاب ، وسال فى المنخفضات ماء باردا . فلماذا لم ار ذلك فى دراساتك ؟ واشجار الزيزفون تتفتح ، والامطار هطلت وكانها ليست ماء ، بل فضة نازلة من السماء . فاين كل ذلك فى دراساتك ؟ عار وتفاهة !

ومنذ ذلك التقريع القاسى شرع ليفيتان فى العمل فى الهواء الطلق . فى البداية صعب عليه التعود على الاحساس الجديد بالالوان . فما كان يبدو فى الغرف الملفعة بدخان التبغ ساطعا صافيا فقد فى الهواء الطلق طزاجته بطريقة غامضة وتغشى بغشاوة كدرة .

وسعى ليفيتان الى ان يرسم بحيث يكون ملموسا فى لوحاته الهواء المحتضن بشفافيته كل نصل من عشب ، كل ورقة من شجرة ، وحزمة من قش . فقد بدا كل شىء فيما حوله محاطا بشىء هادئ يشع زرقة ولمعانا . وسمى ليفيتان هذا الشىء بالهواء . ولكنه لم يكن ذلك الهواء الذى نتصوره . فنحن نستنشقه ، ونحس برائحته ، بالبرودة او الدفء . بل ان ليفيتان احسه كحيز بلا حدود لشىء شفاف كان يعطى للوحاته تلك النعومة القاهرة .

انقضى الصيف . وقلّ اكثر فاكثر سماعه لغناء المرأة المجهولة . وذات مرة فى غبشة المساء التقى ليفيتان بامرأة شابة عند باب سياج بيته . كانت يداها الضيقتان تبدوان بيضاوين من تحت الدنتلا السوداء . كانت الدنتلا تحيط بكمى فستانها . غطت السماء سحابة رقيقة ، ونزل مطر خفيف . وكانت الزهور فى الحدائق الصغيرة المحيطة بالبيوت تفوح برائحة مرة . واضيئت الفوانيس على مؤشرات السكك الحديدية .

وقفت المرأة الغريبة عند باب السياج ، وحاولت ان تفتح مظلة صغيرة ، الا انها لم تنفتح . وفى آخر الامر نجحت محاولتها ، وهسهس المطر متساقطا على سطح المظلة الحريرية . وسارت الغريبة على مهل باتجاه المحطة . لم ير ليفيتان وجهها ، فقد كانت المظلة تغطيه . كما ان المرأة لم تر وجه ليفيتان ، ولم تلاحظ غير قدميه الحافيتين القذرتين ، ورفعت المظلة لكيلا تتشربك بليفيتان . وفى الضوء الخداع لحظ ليفيتان وجها شاحبا بدا له مالوفا وجميلا .

عاد ليفيتان الى حجرته الصغيرة ، واستلقى . كانت الشموع ترسل السخام ، والمطر ينز ، وفى المحطة ينتحب السكارى . ومنذ ذلك الحين نفذ الى قلب ليفيتان التوق الى حب الام والاخت والزوجة ، ولم يفارقه الى آخر ايام حياته .

فى ذلك الخريف رسم ليفيتان «يوم خريفى فى سوكولنيكى» فكانت اول لوحة له ينبعث من جنفاصتها الخريف الرمادى والذهبى الحزين مثل حياة روسيا آنذاك وحياة ليفيتان ذاته بنَفَس متوجس من الدفء فيحرك قلب المشاهد .

امرأة شابة فى ثوب اسود تسير على اكوام من الاوراق الساقطة فى درب من دروب منتزه سوكولنيكى — نفس المرأة المجهولة التى لم يستطع ليفيتان ان ينسى صوتها . «صوتى لك حنون وناعم . .» . سمت وسط دغل خريفى وقد احاطتها هذه الوحدة باحساس من الكآبة والاستغراق .

ان «يوم خريفى فى سوكولنيكى» هو المنظر الطبيعى الوحيد لليفيتان الذى يظهر فيه شخص انسان ، وحتى هذا الشخص قد رسمه نيقولاى تشيخوف . وبعد ذلك لم تظهر قط فى لوحات ليفيتان شخوص انسانية . وقد استعيض عنها بالغابات والمراعى والفيضانات المضببة واكواخ روسيا البائسة ، المنكمشة المتوحدة .

وانتهت اعوام الدراسة فى مدرسة الرسم والنحت . ورسم ليفيتان آخر عمل للدبلوم . يصور يوما غائما وحقلا ، وحزما من السنابل المحصودة .

القى سافراسوف نظرة خاطفة على اللوحة وكتب بالطباشير على ظهر اللوحة : «ميدالية فضية كبيرة» .

كان مدرسو المدرسة يرهبون جانب سافراسوف . فقد كان ، وهو الدائم السكر ، الميّال للجدال يعامل الطلاب معاملة الند للند ، اما اذا افرط فى الشراب فقد كان يحطم كل شىء ، ويزعق ناعيا على اغلب الرسامين المعترف بهم افتقارهم الى الموهبة ، ويطالب بان يدخل الهواء والرحابة والضوء الى الجنفاصات .

وقد حول المدرسون نفورهم من سافراسوف الى تلميذه المفضل ليفيتان . وعلاوة على ذلك كان الصبى اليهودى النابغ يغيظ بعض المدرسين . فان اليهودى – حسب رأيهم – لايجوز ان يتناول منظرا طبيعيا روسيا ، فان ذلك من شان الرسامين الروس الاقحاح . واعتبرت اللوحة غير مستحقة للميدالية . ولم يحصل ليفيتان على لقب رسام ، واكتفوا باعطائه دبلوم معلم «حسن الخط» .

وبهذا الدبلوم البائس خرج الى معترك الحياة واحد من ارهف رسامى عهده ، والصديق المقبل لتشيخوف ، والمتغنى الاول بالطبيعة الروسية ، والحيّى رغم كل ذلك .

علق اخوان تشيخوف على السقيفة فى القرية الصغيرة التى كان يسكن فيها ليفيتان لافتة كتب عليها «صندوق التسليف للتاجر اسحاق ليفيتان» .

لقد تحققت اخيرا الامنيات بحياة بلا هموم . فقد انعقدت صداقة بين ليفيتان والرسام نيقولاى تشيخوف ومع عائلة تشيخوف ، وعاش ثلاثة فصول صيف بجوارها . وفى ذلك الحين كانت اسرة تشيخوف تقضى كل صيف فى بابكينو على مقربة من نوفى يورشليم .

كانت اسرة تشيخوف موهوبة صاحبة متفكهة . ولا نهاية للمعابثات عندها . فان كل امر تافه ، حتى صيد الشبوط او النزهة فى غابة لجمع الفطر تتحول الى حدث مرح . ومنذ الصباح على مائدة الشاى كانت تبدأ قصص غير معقولة وبدع وقهقهات

ولا تهدأ حتى ساعة متاخرة من المساء . وكل ميزة مسلية لانسان او كلمة مضحكة كانت تستولى على الجميع ، وتستخدم حافزا للتندر والتضليل .

وكان لليفيتان النصيب الاكبر من ذلك . فقد كان يتهم على الدوام بمختلف الجنايات المدرة للضحك ، وفى آخر الامر شكلت عليه محكمة . واتخذ انتون تشيخوف هياة المدعى العام ، والقى خطاب الاتهام . ووقع المستمعون من مقاعدهم من شدة الضحك . ومثل نيقولاى تشيخوف دور الشاهد الابله . وقدم ادلة واهية وخلط وتورط ، وكان شبيها بالرجل الصغير فى قصة تشيخوف «مجرم مع سبق الاصرار» ، وهو الذى كان يفك صوملة من السكة الحديد ليصنع منها ثقل الفادن لصيد السمك .

والقى الكسندر تشيخوف – محامى الدفاع – مرافعة عالية المقام من حيث التمثيل .

وقد هوجم ليفيتان بشكل خاص على وجهه العربى الجميل . وتشيخوف فى رسائله غالبا ما كان يذكر جمال ليفيتان . كان يكتب «سآتى اليكم جميلا كليفيتان» و«كان حلو التقاطيع كليفيتان» .

ولكن اسم ليفيتان اصبح ناطقا ليس فقط بجمال الرجل بل وبالفتنة الخاصة للمنظر الطبيعى الروسى . وقد نحت تشيخوف كلمة «ليفيتانى» كنسبة واستعملها فى محلها الدقيق جدا . كتب فى احدى رسائله :

«الطبيعة هنا اكثر ليفيتانية بدرجة كبيرة مما هى عندكم» وحتى لوحات ليفيتان كانت تختلف فبعضها اكثر ليفيتانية من غيرها .

فى بادئ الامر بدا ذلك مزاحا ، ولكن مع مرور الزمن اضحى واضحا ان هذه الكلمة تتضمن معنى دقيقا ، فانها كانت تعبر عن جاذبية المنظر الطبيعى فى وسط روسيا ، وهى الجاذبية التى لم يستطع ان ينقلها الى القماشة الا ليفيتان وحده من بين جميع رسامى ذلك العهد .

وفى الفجر خرج ليفيتان مع انتون بافلوفيتش تشيخوف لصيد السمك فى ايسترا . وكانا يختاران لاصطياد السمك شواطىء شديدة الانحدار نمت فيها مجاميع الشجيرات ، وجروفا هادئة حيث كانت تزدهر زنابق الماء ، وتسبح الاسماك ذات الزعانف الحمراء جماعات . وكان ليفيتان يقرأ اشعار تيوتشيف همسا . وكان تشيخوف ينظر مدهوشا ويلعن همسا ايضا ، فان سمكة قد جذبت شصه ، ولكن الاشعار ارهبت السمك الحذر .

لقد حصل ما كان يحلم به ليفيتان وهو فى سالتيكوفكا : لعب المطاردة ، ساعات الغسق حين يتدلى هلال نحيل فوق نباتات حديقة القرية ، النقاشات الضارية عند شاى المساء ، بسمات وارتباك النساء الشابات ، وكلماتهن الرقيقة ، والشجارات الحلوة ، وارتعاش النجوم فوق الاجمات ، وصيحات الطيور ، وصرير العجلات فى الحقول ليلا ، والقرب من اصدقاء موهوبين ، القرب من مجد مؤثل ، والاحساس بالخفة فى جسده وقلبه .

وكان ليفيتان يعمل كثيرا رغم الحياة المملوءة بسحر الصيف . كانت جدران سقيفته — بيت الدجاج سابقا — مغطاة بالدراسات من الاعلى الى الاسفل . وفى النظرة الاولى كان الانسان لا يجد فيها شيئا جديدا : نفس الطرق الملتوية المعروفة لدى الجميع المتلاشية وراء منحدرات التلال ، والغابات الصغيرة ، والابعاد ، والهلال الوضاء فوق اطراف القرى ، والدروب التى داستها الاحذية الليفية وسط الحقول ، والسحب والانهار البطيئة الجريان .

لقد كان العالم المألوف يظهر على الجنفاصات ، ولكن كان فيه شىء خاص به لا يستطيع ان تعبر عنه كلمات الانسان الضنينة . كانت لوحات ليفيتان تثير الما كالم تذكر الطفولة البعيدة بشكل مخيف والجاذبة ابدا فى الوقت ذاته .

كان ليفيتان رسام المنظر الطبيعى الحزين . والمنظر الطبيعى حزين دائما حين يكون الانسان حزينا . ظل الادب والرسم الروسيان يتحدثان قرونا عن السماء الحزينة والحقول المتحولة

والاكواخ المائلة . «روسيا ، يا روسيا البائسة ، اكواخك رطبة لى ، واغانيك كالرياح عندى — كدموع الحب الاولى» .

ومن جيل الى جيل كان الانسان ينظر الى الطبيعة بعينين كدرهما الجوع . وبدت له مريرة مرارة مصيره ، مثل قطعة من الخبز الاسود المبلل . فحتى السماء الاستوائية المتالقة تبدو للجائع غير حفية به .

وبهذا الشكل كان يتولد سم الانقباض المزمن . وقد ابتلع كل شىء ، وحرم الاصباغ من سطوعها وتوثبها وقشابتها . وظلت طبيعة روسيا الرقيقة المتنوعة زمنا طويلا تعتبر باكية جهماء . وافترى الرسامون والكتاب عليها دون ان يعوا بذلك .

كان ليفيتان وليد الغيتو المجرد من الحقوق والمستقبل وليد الاقليم الغربى — موطن البلدات اليهودية الصغيرة البائسة ، وارباب الحرف المصدورين ، والمعابد اليهودية السوداء ، والضيق والضنك .

وطارد الحرمان من الحقوق ليفيتان طوال حياته . فى عام ١٨٩٢ ابعد ثانية عن موسكو ، رغم انه كان رساما مشهورا فى روسيا كلها . واضطر الى الاختفاء فى محافظة فلاديمير ، الى ان نجح اصدقاؤه فى الغاء الابعاد .

كان ليفيتان كئيبا كما كان كئيبا تاريخ شعبه ، اسلافه . وكان يعبث فى بابكينو منجذبا الى الفتيات والاصباغ ، ولكن فى مكان ما فى قرارة نفسه كانت تستقر فكرة ، هى انه من المنبوذين ، مطرود ابن جنس عانى من المطاردات الماحقة .

وكانت هذه الفكرة احيانا تستحوذ على ليفيتان كليا . وحينذاك كانت تبدأ نوبات من الكآبة المرضية . وكانت تشتد بسبب عدم رضاه عن اعماله ، بوعيه بأن يديه غير قادرتين على ان تنقلا بالاصباغ ما ابدعته مخيلته الطليقة منذ وقت بعيد .

وحين كانت الكآبة تستولى عليه كان يهرب من الناس . فقد كانوا يبدون له اعداء . وكان ينقلب فظا نزقا نافد الصبر . وكان يكشط الوان من لوحاته بحنق ، ويختفى ، ويخرج مع الكلب

فيستا الى الصيد ، لا لكى يصطاد بل ليجوب الغابات بلا هدف . وفى مثل تلك الايام كانت الطبيعة وحدها تحتل لديه مكان الانسان القريب منه . فقد كانت تسرى عنه ، وتمس جبينه بنسمة مثل كف الام . وكانت الحقول فى الليل صامتة ، فكان ليفيتان يستريح بهذه الليالى من حماقة الانسان وفضوله .

وفى نوبتين من نوبات الكآبة هذه اطلق ليفيتان الرصاص على نفسه ، ولكنه بقى حيا . وفى كلتا الحالتين انقذه تشيخوف .

وكانت الكآبة تنقضى . ويعود ليفيتان الى الناس ، ويرسم من جديد ، ويحب ، ويؤمن ، ويدخل فى الشربكة المعدة للعلاقات الانسانية حتى يتلقى ضربة جديدة من الكآبة .

كان تشيخوف يرى ان كآبة ليفيتان كانت بداية مرض نفسى . ولكن ذلك ، على ما اعتقد ، كان مرضا عضالا لكل انسان كبير مدقق مع نفسه ومع الحياة .

كان كل ما رسمه يبدو عاجزا . فقد كان ليفيتان يرى وراء الاصباغ الموضوعة على اللوحة الوانا اخرى انقى واشد كثافة . ومن هذه الالوان ، وليس من الزنجفر المعملى والكوبلت والكادميوم كان يريد ان يخلق المنظر الطبيعى لروسيا — الشفاف كهواء ايلول ، الاحتفالى مثل دغل فى فصل تساقط الاوراق .

ولكن الكآبة النفسية كانت تمسك يديه اثناء العمل . وظل ليفيتان لوقت طويل لا يقدر ولا يحسن الرسم بطريقة وضاءة شفافة . فكان الضوء الكابى يستقر على اللوحات ، والاصباغ عبوسة . ولم يستطع باية وسيلة ان يجعلها تبتسم .

فى عام ١٨٨٦ سافر ليفيتان لاول مرة من موسكو الى القرم فى الجنوب .

فى موسكو كان طوال الشتاء يرسم ديكورات لمسرح الاوبرا ، ولم ينقض هذا العمل دون ان يخلف اثرا لديه . فقد اضحى يتعامل مع الاصباغ اكثر جراة . وصارت ضربة الفرشاة اكثر طلاقة . وظهرت الامارات الاولى لصفة ملازمة للفنان الاصيل — امارات الجراة فى التعامل مع المواد . وهذه الصفة ضرورية لجميع

الذين يعملون لتجسيد افكارهم ومثلهم . الكاتب يحتاج الى الجراة فى التعامل مع الكلمات ورصيد ملاحظاته . والنحات فى التعامل مع الصلصال والمرمر ، والرسام فى التعامل مع الالوان والخطوط .

ان اثمن ما ادركه ليفيتان فى الجنوب هو الالوان الصافية . فالوقت الذى قضاه فى القرم بدا له صباحا متواصلا ، حيث الهواء الذى اترع سكونا اثناء الليل ، كما المنبسطات الجبارة فى الوديان الجبلية ، كان من النقاوة بحيث كان يُرى من بعيد الندى المتساقط من اوراق الشجر ، ويلوح خلال عشرات الاميال الزبد الابيض للامواج المقبلة نحو السواحل الصخرية .

كانت رحاب الهواء التى لا تحد تستقر فوق الارض الجنوبية مضفية على الالوان حدة وبروزا .

فى الجنوب احس ليفيتان بجلاء تام ان الشمس وحدها هى التى تسيطر على الالوان . واعظم قوة للرسم تكمن فى الضوء الشمسى ، والنداوة المتوهجة للطبيعة الروسية انما هى جيدة برمتها لسبب وحيد وهو انها ذلك الضوء الشمسى ، الا انه مكتوم مار عبر طبقة الهواء الرطب وغشاء رقيق من السحب .

والشمس واللون الاسود لا يتجاوران . اللون الاسود ليس لونا ، بل جثمان لون . وقد وعى ليفيتان ذلك ، وبعد سفره الى القرم قرر ان يطرد من لوحاته درجات اللون الداكنة . الا ان ذلك ، فى الحق ، لم يستجب له دائما .

وهكذا بدا النضال فى سبيل الضوء الذى استمر سنين عديدة .

فى ذلك الحين كان فان‌غوغ يعمل فى فرنسا على ان ينقل الى القماشة نار الشمس التى تحولت الى النهب القرمزى لكروم آرل . وفى ذلك الوقت تقريبا كان مونيه يدرس الضوء الشمسى على جدران كاتدرائية روان . وكان يذهله ان الدخان الضوئى كان يضفى على كتلة الكاتدرائية انعدام الوزن . فكان يبدو وكأن الكاتدرائية لم تبن من حجارة ، بل من كتل هوائية ملونة بتنوع وشحوب . وكان يقتضى الاقتراب منها كليا ، وتمرير اليد على الحجر ليعود المرء الى الواقع .

وكان ليفيتان ما يزال يعمل بتهيب . بينما كان الفرنسيون يعملون بجراة وعناد . وقد اعانهم فى ذلك شعور بالحرية الشخصية والتقاليد الثقافية والوسط الرفاقى الذكى . بينما كان ليفيتان محروما من كل ذلك . ولم يعرف الشعور بالحرية الشخصية ولم يكن بامكانه الا ان يحلم بها ولكنه حلم بها بعجز وانزعاج من المعيشة الروسية آنذاك ، كما لم يكن حوله وسط رفاقى ذكى .

ومنذ الرحلة الى الجنوب انضاف الى كآبة ليفيتان المعتادة تذكر دائمى للالوان الجافة الدقيقة للشمس التى تحول كل يوم زهيد من حياة الانسان الى عيد .

فى موسكو لم تكن ثمة شمس . اقام ليفيتان فى غرف نُزُل «انجلترا» المؤثثة فى شارع تفرسكايا . وكانت المدينة خلال الليل تتدثر بطبقة باردة من الضباب هى من الكثافة بحيث لم يكن النهار الشتائى القصير يكفى لكى تنقشع . وكانت الغرفة مضاءة بمصباح كيروسين . وكان الضوء الاصفر يختلط بظلام النهار الرطيب ، ويغطى ببقع قذرة وجوه الناس واللوحات المبتدأ بها .

وعاد البؤس من جديد ، ولكن ليس لوقت طويل . فكان ليفيتان يضطر الى ان يدفع اجرة الغرفة لصاحبة النُزُل دراسات لا نقودا .

وكان يستولى على ليفيتان خجل شديد حين كانت صاحبة النزل تضع النظارة الانفية ، وتعاين «اللويحات» لتختار اكثرهما ملاءمة للبيع . وكان اكثر ما يذهل هو أن دمدمة صاحبة النزل كانت تتفق مع مقالات نقاد الصحف .

كانت صاحبة النزل تقول :

— مسيو ليفيتان ، لماذا لا ترسم لنا على هذه المرجة بقرة اصيلة ، ولماذا لا ترسم عاشقين جالسين تحت شجرة الزيزفون هذه ؟ سيكون ذلك متعة للعين .

وكان النقاد يكتبون على هذا النحو تقريبا . فكانوا يطلبون ان ينعش ليفيتان المنظر الطبيعى باسراب من البط والخيول وشخوص الرعاة والنساء .

كان النقاد يطلبون البط بينما كان ليفيتان يفكر فى الشمس الرائعة التى لا بد آجلا او عاجلا ان تدفئ روسيا فى لوحاته ، وتضفى على كل شجرة بتولا ثقل ولمعان معدن كريم .

وبعد القرم دخلت الفولغا الى حياة ليفيتان لمدة طويلة وبرسوخ .

كانت الرحلة الاولى الى الفولغا غير موفقة . كان المطر ينث رذاذا ، وماء الفولغا مشوبا بالكدرة . وكانت الريح تسوق على سطح الماء مويجات قصيرة كئيبة . ومن المطر المضجر كانت نوافذ البيوت فى القرية التى نزل فيها ليفيتان على الفولغا تسح دموعا ، وتتضبب الابعاد ، وكان كل ما حوله يتآكله لون رطب رمادى . وتالم ليفيتان من البرد ومن الطين اللزج على ضفاف الفولغا ومن استحالة الرسم فى الهواء الطلق .

وبدا الارق . كانت ربة البيت العجوز تشخر وراء الجدار ، وقد حسدها ليفيتان على ذلك ، وكتب عنه الى تشيخوف . كان المطر يطبل على السطح ، فكان ليفيتان يشعل ، كل نصف ساعة ، عود ثقاب ، وينظر فى الساعة .

واختفى الفجر فى خواءات الليالى الدامسة حيث كانت تهيمن ريح عدائية . وكان الذعر يستولى على ليفيتان فيتصور ان الليل سيطول اسابيع ، وانه منفي الى هذه القرية القذرة ، ومقضى عليه بان يسمع طوال حياته كيف تضرب اغصان البتولا الرطبة الجدار المصنوع من جذوع الشجر .

واحيانا كان يخرج فى الليل الى العتبة ، فكانت الغصون تضرب وجهه ويديه بألم . ويشتد الغيظ فى ليفيتان ، ويشعل سيكارة ، ولكنه يلقيها فى الحال فقد كان دخان التبغ الحامض يشنج فكيه .

وعلى الفولغا كانت تسمع الضربات المتكررة لدواليب المراكب ، والباخرة القاطرة تومض بمصابيحها الصفراء ساحبة الى ريبنسك فى اعلى الفولغا الصنادل ذات الرائحة العطنة .

لقد بدا النهر العظيم لليفيتان عتبة جحيم جاهم . ولم يكن الفجر يجلب ترويحا . فقد كانت السحب تتلبد فالتة وتنطلق من الشمال الغربى ساحبة على الارض اذيال الامطار السيالة . والريح تصفر فى النوافذ المعوجة ، وتجعل الايدى حمراء وتجمدها . وكانت الصراصير تتراكض خارجة من صندوق الاصباغ .

ولم تكن لدى ليفيتان قوة الاحتمال النفسية . فآل الى القنوط بسبب التعارض بين ما كان ينتظر وما رآه فى الواقع . كان يريد الشمس ، ولم يجد الشمس ، واعمته شدة الهياج ، وفى الفترة الاولى لم يكن يلاحظ حتى درجات الحرارة اللونية الرائعة فى اللونين الرمادى واليمامى والتى يتصف بها الطقس الماطر .

ولكن الفنان انتصر اخيرا على العصابى . وراى ليفيتان فتنـة المطر ، وابدع «عمليه المطريين» الرائعين : «غب المطر» و«فى السكون الدائم» .

اتم ليفيتان رسم لوحة «غب المطر» فى اربع ساعات . خلقت السحب ولون البيوتر * لماء الفولغا اضاءة ناعمة . وهى عرضة الى الاختفاء فى كل لحظة . لقد استعجل ليفيتان .

ان لوحات ليفيتان تتطلب تفحصا متأنيا ، وهى لا تبهر العين . انها متواضعة ودقيقة ، مثل اقاصيص تشيخوف ، ولكن كلما تمعنت النظر فيها ازداد عذوبة سكون الحواضر الريفية والانهار المعروفة والدروب .

لقد احتوت لوحة «غب المطر» كل سحر الغسوقات الممطرة فى بلدة عند الفولغا . برك المياه تلمع ، والسحب تتراجع وراء الفولغا مثل دخان منخفض . وبخـار مداخن البواخر يستقر على الماء . والصنادل عند الشاطئ مسودة من البلل .

فى مثل هذه الغسوقات الصيفية يطيب للمرء الدخول الى اروقة البيوت الجافة ، والى الغرف الواطئة التى غسلت ارضياتها فى التو ، حيث اوقدت المصابيح ، والحديقـة المهملـة تخف من وراء

* لون هو حصيلة موج القصدير والرصاص ونسب متفاوتة من النحاس وبعض المعادن الاخرى — **المترجم** .

النوافذ من القطرات المتساقطة وتفوح رائحة برية . كما يطيب للمرء الاصغاء الى عزف على بيانو قديم . فان اوتاره المرتخيـة ترن رنين القيثار . وشجيرة «فيكوس» داكنة واقفة فى حوضها الى جانب البيانو . وطالبة مدرسة جالسة فى مقعد مطبقة رجليها وهى تطالع تورغينيف . وقط عجوز يطوف فى الغرف ، واذنه تختلج بعصبية ليسمع ما اذا كانت السكاكين تضرب فى المطبخ .

وتاتى من الخارج رائحة حصران ليفية . غدا ستقام سوق ريفية ، وتتوافد عربات على ساحة الكاتدرائية . وباخرة تسير مع تيار النهر ، وتلحق بسحابة ممطرة غطت نصف السماء . وتنظر طالبة المدرسة فى اثر الباخرة ، وتصبح عيناها مضببتين واسعتين . فالباخرة متجهة الى مدن فى اسفل الفولغا ، حيث المسارح والكتب واللقاءات الواعدة .

وحول البلدة حقول الجودار الشعثاء مبللة ليل نهار ..

ان شاعرية اليوم الماطر فى لوحة «فى السكون الدائم» قد انعكست بقوة اشد . وقد رسمت اللوحة على شاطئ بحيرة اودوملى فى مقاطعة تفير .

من منحدر تل تبدو اشجار بتولا داكنة منحنية تحت عصف ريح قوية ، وبينها كنيسة صغيرة مبنية بروافد خشبية مائلـة تقريبا وينبسط متسع نهر بعيد ، ومروج اعتمها الطقس السيئ وسماء غائمة هائلة . سحب ثقيلة مشبعة بالرطوبة الباردة تخيم على الارض . وشُفُف المطر المائلة تغطى الرحاب .

لم ينقل احد من الرسامين قبل ليفيتان بهذه القوة الحزينـة الآماد التى لا تسبر للطقس الروسى الماطر . وهو من الهدوء والجلال ما يجعله محسوسا كالعظمة .

وكانت الرحلة الثانية الى الفولغا اكثر توفيقا من الاولى . لم يسافر ليفيتان وحده بل مع الرسامـة كوفشينيكوفـا . كان الكثيرون ، ومنهم ليفيتان نفسه ، يعتبرون ان تشيخوف قـد وصف هذه المراة الساذجة العاشقة لليفيتان فى قصته «القفازة» . وقد تكدر ليفيتان من تشيخوف تكدرا شديدا على هذه القصة .

وانقطعت الصداقة بينهما . وسارت المصالحة فى طريق وعر معذب . ولم يستطع ليفيتان حتى آخر حياته ان يغفر لتشيخوف هذه القصة .

سافر ليفيتان مع كوفشينيكوفا الى ريازان ، ومن هناك استقلا باخرة نازلين فى نهر اوكا الى الاسفل حتى قصبة تشولكوفو . وقرر الاقامة فى القصبة .

كانت الشمس فى الحقول تافل وراء منحدر صلصالى . وكان الصبيان يطاردون الحمام المحمر من لون الشفق . وفى الشاطئ المرجى اوقدت نيران ، وفى المستنقعات يوقوق مالك الحزين شاكيا .

فى تشولكوفو اجتمع كل ما اشتهر به اوكا – كل سحر هذا النهر «الفياض ذى اشجار البلوط المورقة ، الجارى فى منبسط رمال موروم بجلال وبهاء وانسياب وسط شواطئ مهيبة» .

لا شيء يعبر عن سحر اوكا الكسول من هذه الابيات ليزيكوف .

على المرسى فى تشولكوفو اقبل على ليفيتان عجوز قصير ذو عين سيالة دامعة . وجذب بحركة بطيئة ردن سترة ليفيتان من حرير التيوسور ، ودعك قماشتها طويلا باصابعه الخشنة . سأل ليفيتان :

– ماذا بك ، يا جد ؟

– القماش – قال العجوز وتاوه – يطيب للمرء ان يتملاه . يهس مثل المراة . ومن هذه ، المغفرة لله ، هل هى زوجتك ؟

واشار العجوز الى كوفشينيكوفا . وظهر الخبث فى عينيه .

اجاب ليفيتان : – زوجتى .

– اما – قال العجوز ذلك بخبث ، وانصرف . قال – سيُعرف اصلك وفصلك ، وما تجولك فى الارض .

ولم ينبئ اللقاء عن شيء حميد . ففى صباح اليوم التالى عندما جلس ليفيتان وكوفشينيكوفا على منحدر التل ، وفتحا صناديق الاصباغ ، بدات بلبلة فى القرية . اخذت النساء يتنقلن من بيت الى بيت . وتجمع الرجال على منحدر التل ببطء متجهمين محلولى

الاحزمة وقد علق القش فى شعورهم ، وجلسوا على مبعدة ، ينظرون الى الرسامين بصمت . وصار الصبيان ينخرون وراء ظهريهما يدفع بعضهم بعضا ويتشاتمون .

وتقدمت عجوز بلا اسنان من جانب ، ونظرت الى ليفيتان طويلا ، ودعت فجاة :

– يا يسوع المسيح ، ماذا انت فاعل ، يا وقح ؟

واخذ الرجال يضجون . وشحب ليفيتان وهو جالس ، ولكنه ضبط نفسه ، وقرر ان يرد بالمزاح فقال للمراة :

– لا تنظرى ، يا شيخة . وستنبهرين .

– او ، او ، يا سليط – صرخت المراة ، ومخطت فى ذيل ثوبها واتجهت الى الرجال . وكان بينهم كاهن ضئيل الجسم دامع العينين لا احد يعرف من اين جاء الى تشولكوفو ، واقام فى كنيسة القرية . لقد اهتز هذا الكاهن معتمدا على عصاه الطويلة ، وهتف بصوت مكتوم :

– اناس فاسدون ! ان ما يفعلانه غير مفهوم . يخططان مروج الله . لا مفر من وقوع حريق ، يا رجال ، لا مفر من وقوع مصيبة !

وصرخ العجوز ذو العين الواحدة :

– عودا من حيث اتيتما . تقاليدنا لا تسمح برسم اللوحات مع النساء . انصرفا !

واضطر الرسامان الى جمع الاصباغ والانصراف .

وفى نفس اليوم رحل ليفيتان وكوفشينيكوفا من القرية . وعندما كانا متجهين نحو المرسى كان يهدر عند الكنيسة حشد فالت ، وكانت تسمع صيحات الكاهن الزاعقة :

– اناس فاسدون . كفار . المراة تسير حاسرة الراس .

وكانت كوفشينيكوفا لا تضع على راسها قبعة ولا منديلا .

نزل ليفيتان مع مجرى نهر اوكا الى نيجنى ، وهناك انتقل الى باخرة اقلته الى ريبينسك . كان ليفيتان طيلة الايام يجلس مع كوفشينيكوفا على ظهر الباخرة ، وينظر الى الشواطئ باحثا عن اماكن للدراسات .

ولكن لم تكن هناك اماكن جيدة . وكان ليفيتان يتجهم اكثر فاكثر ويشكو من التعب . كانت الشواطئ تمر ببطء وبلا تنوع ، ولا تسر العين لا بالقرى الجميلة المنظر ، ولا بالمنعطفات الساحمة المنسابة .

واخيرا شاهد ليفيتان فى بليس ، من على سطح الباخرة ، كنيسة قديمة من جذوع الصنوبر . كانت تبدو سوداء على خلفية السماء الخضراء ، وكانت النجمة الاولى تتوقد فوقها متوامضة متلألئة .

وفى سكون المساء وسط الاصوات الرخيمة للنساء وهن يبعن الحليب على المرسى شعر ليفيتان نحو هذه الكنيسة بطمانينة كبيرة حتى انه قرر فى الحال البقاء فى بليس .

ومنذ ذلك الوقت بدات مهلة مشرقة فى حياته .

كانت البلدة الصغيرة ساكنة قليلة السكان . وكان لا يعكر السكون غير قرع الجرس وثغاء القطيع ، وفى الليالى نقر عصوات الحراس . وفى منحدرات الشوارع الصغيرة والمنخفضات كان يزدهر الارقطيون وينمو نبات رِجْل الاوز . وفى البيوت يجفف زهر الزيزفون على افاريز النوافذ وراء ستائر الموسلين .

كانت النهارات مشمسة مستقرة جافة . والصيف الروسى كلما اقترب من الخريف يضحى اكثر ازديانا بالزهور الناضجة . وحتى فى آب تتورد اوراق حدائق التفاح وتتالق الحقول بشيب الخريف ، وفى الامسيات تخيم على الفولغا غيوم مغطاة بتورد حار .

زالت الكآبة . وكان من المخجل حتى ان تخطر له على بال .

وكان كل يوم ياتى بمفاجآت مؤثرة . تارة تضع امراة عجوز ضعيفة البصر حسبت ليفيتان فقيرا قطعة نقود محكوكة من فئة خمسة كوبيكات على صندوق الاصباغ ، وتارة ياتى اطفال يدفع بعضهم ظهر الآخر يطلبون ان يرسموا ، ثم ينفجرون ضاحكين ويتفرقون متراكضين ، وتارة تاتى خلسة جارة شابة من انصار المذهب القديم ، وتبدأ بالشكوى بصوت رخيم من قسمتها الثقيلة . وقد اطلق ليفيتان على هذه المراة اسم «كاترينا» من شخصيات مسرحية «عاصفة رعدية» لاوستروفسكى . وقد قرر مع

كوفشينيكوفا ان يساعد كاترينا على الخروج من بليس هربا من العائلة المقرفة . وقد نوقش الهروب فى دغل وراء البلدة . كانت كوفشينيكوفا تتهامس مع كاترينا بينما رقد ليفيتان عند حافة الدغل وراح ينذر المرأتين عند الخطر بصفير خافت . ونجحت كاترينا فى الهروب .

كان ليفيتان حتى سفره الى بليس لا يهوى الا المنظر الطبيعى الروسى . ولكن لم يكن مفهوما له الشعب الذى يقطن البلاد الكبيرة . فمن كان ليفيتان يعرف ؟ حارس المدرسة الفظ «الروح الخبيثة» ، نُدُل الحانات ، خدام الغرف المؤثثة الوقحاء ، رجال تشولكوفو المتوحشين . وكان غالبا ما يرى الخبث والقذارة والخنوع الاخرق ، والاحتقار له ، كيهودى .

وحتى اقامته فى بليس لم يكن يؤمن بحنان الشعب ، برجاحة عقله ، بقدرته على ان يفهم الكثير . وبعد بليس احس ليفيتان بقربه لا من المنظر الطبيعى لروسيا وحده ، بل ومن شعبها الموهوب التعيس الذى يبدو وكأنه أخلد الى السكينة اما انتظارا لمحنة جديدة او لانطلاقة عظيمة .

فى هذه الرحلة الثانية الى الفولغا رسم ليفيتان لوحات كثيرة . وقد قال تشيخوف له عن هذه الاشياء : «فى لوحاتك ظهرت ابتسامة بالفعل» .

ظهر الضوء والتالق لاول مرة عند ليفيتان فى اعماله «الفولغاوية» — فى «بليس الذهبية» و«ريح طرية» و«رنين الاجراس فى المساء» .

ان كل واحد منا تقريبا قد بقيت فى ذاكرته منذ الطفولة فرجات الغابة المفروشة باوراق الشجر ، ومغانى الوطن المورقة الحزينة المتالقة تحت الشمس الباهتة الحرارة فى الزرقة الخافتة ، فى سكون المياه الوادعة ، فى صيحات الطيور المهاجرة .

وتنبعث هذه الذكريات فى سن النضج بقوة مذهلة لاى حجة واهية ، ولو كانت منظرا طبيعيا عابرا مرق من وراء نافذة فى

عربة قطار ، فتثير فينا احساسا غير مفهوم لنا انفسنا بالانفعال والسعادة والرغبة فى ترك كل شىء – المدن والمشاغل ودائرة الناس المعتادة ، والرحيل الى ذلك المكان البعيد . على ضفاف بحيرات مجهولة ، طرق الغابة ، حيث يسمع كل صوت بوضوح عن بعد كما لو كان فى ذرى الجبال ، سواء اكان صافرة قاطرة او صفير طائر يتنقل فى اجمات الغبيراء .

ومثل هذا الاحساس بالاماكن الحبيبة التى رأيناها منذ زمان بعيد يتخلف من لوحات ليفيتان «الفولغاوية» و«الخريفية» .

كانت حياة ليفيتان فقيرة فى الاحداث . فقد قام برحلات قليلة . واحب روسيا الوسطى فقط . وكان يعتبر الرحلة الى اماكن اخرى مضيعة للوقت سدى . وهذا ما بدا له السفر الى الخارج ايضا .

لقد سافر الى فنلنده وفرنسا وسويسرا وايطاليا .

اثارت الضجر فيه احجار فنلنده الغرانيتية وماؤها النهرى الاسود ، وسماؤها المتثلجة وبحرها الكئيب . وقد كتب الى تشيخوف من فنلنده : «مرة اخرى اكتابت الى اقصى حد . هنا لا توجد طبيعة» .

وفى سويسرا بهرته جبال الالب ، ولكن منظر هذه الجبال لا تختلف عند ليفيتان عن مناظر اللوحات المصغرة الملطخة بالاصباغ الصارخة .

وفى ايطاليا لم يعجب الا بفينسيا حيث الهواء مملوء بدرجات اللون الفضية التى تولدها الاهوار الكامدة اللمعان .

وفى باريس شاهد ليفيتان صور مونيه ، ولكنها لم تعلق بذاكرته . وقبيل موته فقط قيم رسم الانطباعيين وفهم انه جزئيا كان المبشر الروسى بهم ، ولاول مرة ذكر اسماءهم بتقدير .

قضى ليفيتان فى السنوات الاخيرة من حياته اوقاتا طويلة بالقرب من فيشني-فولوتشوك على ضفاف بحيرة اودوملي . فهنا ،

وفى عائلة اصحاب الاطيان بانافيدين وقع ليفيتان مرة اخرى فى شربكة العلاقات الانسانية ، واطلق النار على نفسه ، ولكنه انقذ .

وكلما اقترب ليفيتان من الشيخوخة كان فكره يتوقف عند الخريف .

حقا ان ليفيتان رسم بعض الاعمال الربيعية الممتازة ، ولكنها كانت دائما تقريبا ربيعا يشبه الخريف .

فى لوحة «الماء الواسع» دغل غمره الفيضان عار كما هو فى اواخر الخريف ، وحتى لم يغط بالسديم المخضوضر للاوراق الاولى . وفى لوحة «الربيع المبكر» نهر اسود عميق يقف ميتا وسط المنخفضات التى ما تزال مغطاة بالثلج الهش . وفى لوحة «آذار» فقط انعكس السطوع الربيعى الحقيقى للسماء فوق اكوام الثلج الذائبة ، وضوء الشمس الاصفر واللمعان الزجاجى لماء الذوبان المتقطر من مقدمة بيت خشبى .

ان اعذب الاشعار والكتب واللوحات واكثرها مساسا للقلوب هى تلك التى كتبها او رسمها الشعراء والكتاب والرسامون الروس عن الخريف .

كان ليفيتان مثل بوشكين وتيوتشيف وكثيرين آخرين ينتظر الخريف كاعز واخطف فصل من السنة .

كان الخريف يعرى الغابات والحقول والطبيعة كلها من الالوان الكثيفة ، ويمسح الخضرة بالامطار . وتصبح الادغال جرداء . وتستبدل الوان الصيف الداكنة بالذهب الباهت ، والارجوان والفضة . ولا يتغير لون الارض وحده بل والهواء ذاته . فيكون اصفى وابرد ، وتكون الابعاد اعمق بكثير مما هى فى الصيف .

وهكذا يتحول الترف الفتى للالوان ورونق اللغة فى سن النضوج عند كتاب ورسامين كبار الى دقة واصالة معدن .

والخريف فى لوحات ليفيتان متنوع جدا . ومن المستحيل تعداد جميع ايام الخريف التى رسمها على القماشة . وقد خلف ليفيتان حوالى مائة لوحة «خريفية» ما عدا الدراسات .

وقد صوّرت فيها اشياء معروفة منذ الطفولة : اكوام الدريس المسودة من الرطوبة ، وانهار صغيرة تلف الاوراق الساقطة فى

دوامات بطيئة ، واشجار بتولا وحيدة ذهبية لم تعرها الريح بعد ،
وسماء تشبه جليدا رقيقا ، وامطار كثيفة فوق اشجار مقطوعة .
ولكن فى كل هذه المناظر الطبيعية ومهما صورت ينعكس افضل
ما ينعكس ، حزن الايام المنصرمة ، واوراق الشجر المتناثرة ،
والاعشاب المتعفنة ، وطنين النحيل الخافت قبيل موجات البرد
وشمس ما قبل الشتاء المدفئة للارض بشكل لا يكاد يلحظ .

رويدا رويدا ، ومن عام الى عام كان مرض قلب شديد يتطور
لدى ليفيتان ، ولكن لا هو ، ولا القريبون منه كانوا يعرفون به
الى ان ظهر باول نوبة قوية .

ولم يتعالج ليفيتان . فقد كان يخاف الذهاب الى الاطباء ،
ويخاف الاستماع الى الحكم بالموت . وبالطبع كان الاطباء سيمنعونه
من التردد على الطبيعة ، بينما كان ذلك بالنسبة له صنو الموت .

وكان ليفيتان يتشوق اكثر مما فى سنوات الشباب . وكان
يكثر باطراد من الخروج الى الغابات — وكان يعيش فى الصيف
قبيل موته بالقرب من زفينيغورود — وقد وجدوه هناك باكيا خائر
الاعصاب . فقد عرف أنه لا شىء — لا الاطباء ولا الحياة الهادئة
ولا الطبيعة التى يحبها بشكل عارم — بقادر على ان تبعد النهاية
التى دنت .

فى شتاء ١٨٩٩ ارسل الاطباء ليفيتان الى يالتا .

فى ذلك الوقت كان تشيخوف يعيش فى يالتا . والتقى
الصديقان القديمان وقد تقدمت بهما السن واغترب احدهما عن
الآخر . كان ليفيتان يسير متكئا على عصاه بثقل ، لاهث الانفاس ،
يحدّث الجميع عن دنو الموت . وكان يخافه ولا يخفى ذلك . وكان
قلبه يوجعه بلا انقطاع تقريبا .

كان تشيخوف يحن الى موسكو ، الى الشمال ، ورغم ان البحر
على حد كلماته ، كان «كبيرا» الا انه كان يضيّق العالم . وما خلا
البحر ويالتا الشتائية الهادئة بدا وكانما لم يبق شىء فى الحياة .
وهناك فى مكان بعيد جدا وراء خاركوف ، ووراء كورسك واوريل
كان الثلج يرقد ، واضواء القرى الفقيرة تومض من العتمة فى

العاصفة الثلجية البيضاء . وبدت هذه العاصفة الثلجية حبيبة
الى القلب ، اقرب بكثير من اشجار السرو الجنوبية والهواء البحرى
الحلو . وكان هذا الهواء يصيب الراس بالصداع غالبا . وبدا كل
شىء حبيبا : الغابة والجداول — ومختلف القرى الصغيرة من
امثال بيخوركا وفيرتوشينكا ، وحزم الدريس فى الحقول الخالية
فى المساء ، مضاءة بضوء القمر الباهت ، وكانما قد نسيها الانسان
الى الابد .

طلب ليفيتان العليل من تشيخوف قطعة من الكارتون ، وخلال
نصف ساعة خطط عليها بالاصباغ الزيتية حقلا فى المساء فيه حزم
الدريس . وقد وضع تشيخوف هذه الدراسة على الموقد قرب
منضدة الكتابة ، وغالبا ما كان ينظر اليها اثناء العمل .

كان الشتاء فى يالتا جافا مشمسا ، ومن البحر كانت تهب
رياح فيها دفء . وتذكر ليفيتان رحلته الاولى الى القرم ، فرغب
فى الذهاب الى الجبال . فقد كانت تنازعه ذكرى تلك الرحلة ، حين
شاهد من قمة جبل آيبترى السماء العائمة المقفرة تحت قدميه .
وكانت الشمس تتدلى فوق راسه ، وفى هذه البقعة بدت اقرب الى
الارض ، وضوؤها الاصفر كان يلقى ظلالا واضحة المعالم . وكانت
السماء الغائمة داخنة فى المهاوى فى الاسفل ، وتزحف ببطء نحو
قدمى ليفيتان مغطية الغابات الصنوبرية .

كانت السماء تتحرك الى الاسفل ، وقد حيّر ذلك ليفيتان كما
حيره السكون الجبلى الذى لا مثيل له قط . ومن حين لآخر كانت
تعكره همهمة انثيال كسر الحجارة لا غير . وكانت قطعة من
الصخر تتدحرج على المنحدر ، ويتدحرج معها عشب جاف شائك .

كان ليفيتان يود الصعود الى الجبال ، وطلب ان يؤخذ الى
آيبترى ، الا ان طلبه رفض ، فان الهواء الجبلى الخفيف الكثافة كان
من الممكن ان يودى بحياته .

ولم تسعفه يالتا ، فعاد ليفيتان الى موسكو ، وكان لا يكاد
يغادر بيته فى زقاق تريوخسفيتيتيلسكى .

وفى الثانى والعشرين من تموز عام ١٩٠٠ وافته المنية . وكانت
الغسوقات تحل فى ساعات متاخرة ، حين تظهر النجمة الاولى فوق

موسكو على علو شاهق ، واوراق الاشجار مثقلة بغبار اصفر ، وفى انعكاسات الشمس الآفلة .

كان الصيف متأخرا جدا . فى تموز كان الزنبق يكمل تفتحه . وكانت شجيراته المثقلة تملأ الحديقة الصغيرة قرب بيته . وكانت رائحة اوراق الشجر والزنبق والاصباغ الزيتية تطوف فى المرسم الذى كان يحتضر فيه ليفيتان . وقد صاحبت هذه الراحة كامل حياة الرسام الذى نقل الى القماشة حزن الطبيعة الروسية ، تلك الطبيعة التى كانت تنتظر ، مثل الانسان ايضا ، اياما اخرى سارة .

وقد حلت تلك الايام بعد موت ليفيتان ، وقد استطاع تلامذته ان يروا ما لم يره معلمهم – بلادا جديدة اضحى منظرها الطبيعى مختلفا ، لأن الانسان اضحى مختلفا ، واستطاعوا ان يروا الق الالوان الزاهية التى لم يألفها ليفيتان .

لم ير ليفيتان ذلك لان المنظر الطبيعى سار فقط حين يكون الانسان حرا وفرحا .

لقد اراد ليفيتان ان يضحك ، ولكنه لم يستطع ان ينقل الى لوحاته حتى ابتسامة باهتة .

كان من النزاهة الشديدة بحيث ما كان فى وسعه ان يتغاضى عن عذابات الشعب . فصار المتغنى بالبلاد الشاسعة البائسة ، المتغنى بطبيعتها . وكان ينظر الى هذه الطبيعة بعيون الشعب المعذب – فى ذلك تكمن قوة فنه ، وفى ذلك يكمن جزء من تفسير جاذبيته .

المنظر الطبيعى لروسيا الريفية





كل امرئ يحب الطبيعة على طريقته الخاصة و«قدر امكانه» .

وحب الطبيعة ليس تامليا وفارغا من النشاط . وهو فى كل لحظة يمكن ان يتحول من حالة التامل الى حنق ومقاومة . وكثيرون يعرفون ذلك الحنق الذى يجمد القلب والذى يحسه المرء لدى رؤية الطبيعة تخرّب بدون داع . فان الزعيق الناجم عن سقوط اشجار معمرة قطعت من الجذور يصيب الانسان بالم جسمانى تقريبا . ذلك لاننا نعرف ان قطع الاشجار فى بعض الاحيان لا تفرضه ضرورة حياتية ، بل التقصير والجهالة ، والاسوأ من ذلك ، موقف الانانية النفعية من الارض .

وهيئات تحرير صحفنا تتلقى مئات الرسائل من اناس بسطاء من جميع انحاء البلاد حول الموقف غير المتبصر ، والاجرامى احيانا من الطبيعة . والناس يزفرون الآهات من ذلك ، ويطلبون المعونة .

وحتى الآن ليس لدينا الادراك الكامل للحقيقة الاولية وهى ان الحفاظ على الطبيعة ، الحفاظ على المنظر الطبيعى هو واجب مهم على نطاق الدولة ، وواجب تربية الروح الوطنية بمفهومها الصافى الاصيل .

وشعبنا مدين ، ضمن اسباب اخرى ، الى الطبيعة بصفاته الخلقية وبموهبته وقوته الابداعية . فان قوة تاثيرها الجمالى من الشدة ، بحيث لولا وجودها لما كان لنا بوشكين بمثل تلك الالمعية التى كان عليها ، وليس بوشكين وحده ، بل ليرمنتوف ، وتشايكوفسكى ، وتشيخوف ، وغوركى ، وتورغنيف ، وليف تولستوى ، وبريشفين ، واخيرا ، لما كانت ثريات رسامى المناظر الطبيعية الرائعين : سافراسوف ، ليفيتان ، بوريسوف. موساتوف ، نستروف ، كويندجى ، كريموف وكثيرين آخرين .

من الصعب التصديق بانه الى امد غير بعيد فقط كان بعض النقاد يعلنون ان المنظر الطبيعى غير ضرورى ، بل يقولون عن الرسامين والكتاب من مصورى الطبيعة أنهم «يختفون فى المنظر الطبيعى عن الواقع» وبذلك يكشفون عن انفسهم بما لا مجال للشك على أنهم اعداء مجتمعنا .

ولم تنجح بالطبع ، هذه المحاولة الخبيثة للطعن فى فننا . ولكن ما تزال حتى الآن بعض المفاهيم والمصطلحات النهلستية التى تنطوى على خطر تجريد الفن من الحياة .

ومن بين هذه المصطلحات «الاعجاب» . وهو يطبق كثيرا جدا وبشماتة على رسامى وكتاب المناظر الطبيعية . ويرن فى الاذن كحكم اتهام ولحن تشييع . وكان مغزى فحوى هذا المصطلح فى خلاصته يتضمن ، فى الظاهر ، ان الشخص اباح لنفسه ان يعجب بما «لا ينبغى» ان يعجب به ، حسب رأى الناقد ، ومثال ذلك المنظر الطبيعى .

من المفهوم ان الاعجاب بالطبيعة هو نتيجة حبها ، وحب الطبيعة الحبيبة هو من اصدق امارات حب الانسان لبلاده ، امارات الوطنية . ففى اى الاذهان الكارهة للانسان والكارهة للطبيعة يمكن ان تتولد الرغبة فى ان تلصق هذه الكلمة برسامينا الممتازين كوصمة ؟

وما القصد من التذكير بذلك الا لكيلا تتكرر مثل هذه الحالات ابدا .

. . . فى كل بلدة نائية فى بلادنا ، بل وفى غيرها من القرى المغمورة يمكن ان تلتقى برسامين جيدين من الذين علّموا انفسهم بانفسهم . ولا احد يعرف هؤلاء الرسامين ، ولم يكتب عنهم قط .

وابناء البلدة يعاملون هؤلاء الرسامين باحترام رغم انهم يعتبرونهم اصحاب اطوار غريبة . وذلك ، على ما يبدو ، لان الروسى البسيط يحب الرسم اكثر من جميع انواع الفنون الاخرى على ما اظن ، ولا سيما حين يكشف له هذا الرسم فتنة الاماكن المأهولة المعروفة جيدا . وفى مثل هذه الاحوال يقول ابناء بلدة الرسام باعتزاز : «تلك هى اماكننا ! بينما كنا نظن انه لا يوجد لدينا اى مكان ممتع تقريبا . لا شىء غير الحقول والوهاد ، والقناطر والانهار» .

من المؤسف بالطبع انه لا يوجد لنا حتى الآن اناس غيورون يهتمون بمثل هؤلاء الرسامين العصاميين ، ويكتشفونهم ، وينتقون افضل اعمالهم ، ويعرضونها للجمهور . ولو فعلوا لاكتشفوا ثروات

من الرسم لا احد يعرفها خلال قرون ، فطواها الاهمال ، ثروات شعبية حقا فى مباشرتها ، ولوحات رغم انها غير حاذقة فى عين المقيّمين المدققين ، الا انها مملوءة بالسحر البدائى .

وكم من مرة حدث لى ايضا ان اجد فى الاماكن النائية ، فى الاكواخ القديمة مثل هذه اللوحات غير مؤطرة وسط الصور الفوتوغرافية الباهتة والزهور الورقية الفخفاخة . وفى بعض الاحيان كان لا يمكن مسها دون ان تدع الصراصير الصهباء تتراكض وراءها بعدو سريع فى جميع الجهات .

وعندما تسأل امرأة عن صاحب هذه اللوحات تسمعها تقول فى الجواب دائما تقريبا ان هذا من لهو ابنها ، فقد كان هاويا كبيرا فى هذا الامر ، ولو كان ، بالطبع ، قد درس لطلع رساما فنّانا .

. . . وتتوقف قوة التأثير المتنوعة للمنظر الطبيعى على درجة ما تحمل من مسرة لحواسنا ، وعلى درجة تلوينها الصادق القومى واحيانا المحلى .

اننا لن نفضل احسن الجمالات الرائعة للمناطق الاستوائية والغرب على اماكننا النائية المتواضعة . فقد ولدنا وعشنا «تحت القماشة الرمادية البسيطة لهذه السماوات الشمالية الهادئة» ، وقد اندمج جمالها بحياتنا كلها ، وكانت شهودا عليها ، ولهذا فنحن وحدنا نستطيع ان نتحسس هذا الجمال ونفهمه بكامل القوة . والاستثناء نادر .

واثناء الرحلات غالبا ما نعجب بتألق طبيعة بلاد اخرى ، ولكنها لن تغطى ابدا على الطبيعة الروسية . بل بالعكس كلما كان الشىء الغريب اسطع كان ما يخصنا اقرب الينا . لا شىء ، لا الوهج الليلقى لبحر ايجه ولا المرمر المتورد ولا شجيرات الدفلى الحمراء لهيلاس ، ولا هواء صقيلية الازرق الاسطورى ، ولا الغمامة الذهبية الباهتة فوق باريس الخالدة يستطيع ليس فقط ان يغطى على ذكرانا لوطننا ، بل بالعكس ، ان يدفع بها الى الحدة المرضية تقريبا .

وقد جربت ذلك بنفسى . عندماكنت فى حدائق فرساى المضببة
قبيل الخريف ، باوراق اشجارها المسودة كطبقة مذهبة قديمة ،
وبترفها الهندسى تذكرت – ولا ادرى لماذا مطلقا – بلدة
سباس-كليبيكى الضئيلة ، وتوجع قلبى .

فى هذه البلدة جُمع ، وكانما عن قصد ، كل ما تطيب به
مثل هذه البلدات عندنا : البيوت الصغيرة بعلياتها التى ايبستها
الحرارة ، والزجاج الملون فى واجهات البيت الصغيرة واشجار
الدردار المعمرة ، والجسر الخشبى المرنّ فوق نهر صاف ،
والصياح المعدنى للوز المذعور ، والسدة عند الجسر باشجار
الصفصاف الشائخة المنخوبة ، والعشب المغبر على المنحدرات ،
والصبيان باعواد صيد السمك وزيغان الزرع اللاغطة ، والنجارون
بمناشيرهم الملفوفة بقطعة جنفاص ، والفتيات الحاملات بجلال على
اعواد التوازن جرادل الماء . وصفارة القطار الشاكية على خط فرعى
ضيق وهزيم الرعد النائى فوق مناطق غابات الصنوبر ، والذرى
الثلجية للسحب الرعدية .

وفى ساحة السوق الريفية يغنى المذياع «نهضت السحب فوق
المدينة ، والهواء مضمخ برائحة عاصفة رعدية» . ولا يصغى الى
المذياع الا الخيول الصغيرة الشعثاء الاعراف عند مرابطها متغيرة
السحنات . فان عيونها تعمى من هذه الاغنية . ومن الصعب ،
بالطبع ، تخمين ما تحلم به الخيول . ربما بالبرسيم المعطار ،
وربما بالشوفان البارد الزلق فى عليجة من الجنفاص البنى
الخشن . ومن وراء النهر ، تهب ، وكأن ذلك مناكدة ، رائحة
كثيفة من الدريس المحصود لتوه . وتطير الديكة الى العربات
بوقاحة ، وتصيح فى غير اوقاتها مصطفقة باجنحتها مستدعية
المطر .

وانا لا اخشى الاعتراف بأن شاعرية اليوم الصيفى الناعس فى
مثل هذه البلدة اقرب الى قلبى من الرحابة المهيبة لحدائق
فرساى . لقد خطرت فى ذاكرتنا الف مرة كلمات غريبويدوف
الخالدة فى وقتها عن ان «دخان الوطن حلو لنا ومريح» – دخان

القرى فى سكون اليوم الشتائى الرقيق او دخان النيران الذى يمتد
منخفضا فوق البحيرات المرجية .

الجميع يعرفون لوحة نستروف «رؤيا الصبى فورفوليم» . ان
هذا الراعى الريفى الصغير ذا العينين الزرقاوين العميقتى النقاء
– الاشقر الشعر ، النحيل ، فى لفافتى الساقين على حذائين من
الليف – يبدو للكثيرين تشخيصا لروسيا القديمة ، – لجمالها
الهادئ الباطنى ، وسماواتها غير الساطعة ، وشمسها غير الحارة ،
والى آمادها التى لا تسبر ، وحقولها وغاباتها الهادئة ، اساطيرها
وحكاياتها .

وهذه اللوحة ، كمصباح بلورى اوقده الرسام فى تمجيد
بلاده روسيا .

واروع ما فى الصورة هو المنظر الطبيعى . فى الهواء الصافى
كماء النبع تشاهد كل ورقة ، وكل تويج متواضع لزهرة حقل ،
وكل عشب ، وشجيرة بتولا عذراء . وكل ذلك يبدو نفيسا . وانه
لكذلك . ان هذا المنظر للحشائش والانهار الزرقاء المياه والتلال
والغابات الداكنة ، وكانما تتسمع الى رنين خافت مقبل من بعيد ،
يفتح فينا انفسنا مثل هذه الابعاد من حب ارض وطننا ، حتى
ليكلف جهدا كبيرا حتى لأهدأ الناس ليحبس دموعه اللاارادية .

ان المنظر الطبيعى لنستروف يمس قلب كل من له قلب .
وفيه ينعكس الجوهر الرائع للخلق الروسى . وفيه ايضا بوشكين
(«الغابات الرافلة بالارجوان والذهب») ، ويسينين («الدخان
الحليبى يهز القرى بالريح ، ولكن لا ريح بل رنينا خافتا فقط») ،
وبلوك («اغانيك عندى عاتية مثل دموع الحب الاول») ، والكسى
تولستوى («اباركك ، ايتها الغابة») ، وبونين («مغناى ، يا
مُغَنيناى ، ايها القديم النائى») ، وليسكوف وبريشفين وليونوف
وزابولوتسكى – وجميع من اغنى شعر بلادنا .

وكل ما قيل عن شاعرية المنظر الطبيعى لبلداتنا الاقليمية له
علاقة مباشرة بالرسم . ويكفى ان تخرج وراء طرف اية بلدة من هذه
حتى تجد نفسك محاطا بهذا المنظر الطبيعى . ففى كل مكان على اى

جانب لاى طريق ريفى تنتظر الفنان الحقيقى ثروات كاملة فى اى وقت من اوقات السنة .

لنبدأ من الربيع ، من الطف فصول السنـــة ، مثل بوارض الاوراق الاولى .

فى مستهل الربيع توجد فترة قصيرة تسيل فيها مياه الربيع ، ويتفتح الصفصاف الابيض .

وتزدهر اشجار صفصـــاف بيضاء وحيدة فوق الماء الداكن الهادئ . وهى تنعكس على الماء وعليها يتناثر زغب فضى ناعم الملمس دافئ شبيه بفراخ الطيور الصغيرة . وقد سمى بريشفين مثل هذه الطيور بـ«طويرينات» .

ومن الصعب التخلص من الاحساس بأن هذا الزغب كائنـــات حية ، وهى ، زيادة على ذلك ، دافئة دفئا وكان فروها الناعم قـد امتص كل دفء النهار الربيعى ، رغم ان النهار غائم ، والشمس لا تطلع الا من حين لآخر مثل بقعة بيضاء مغسولة على خيمة السمـاء الرمادية .

فى مثل تلك الايام يستولى علينا نوع من الخمول احيانا من بخار الربيع والدفء الرطب والسكون . وحينذاك يمكن ان نقضى ساعات فى الجلوس على الشاطئ عند شجرة صفصاف كهـذه ، ونراقب اسراب الغرانيق تطير عاليا متنادية فوق روسيا آتية من الجنوب صاعدة الى الشمال .

وفى مثل تلك اللحظات تتراءى امام بصرنا الداخلى بلادنــا المترامية الاطراف كلها بلغزها الدائم ونداء ابعادها المزرورقة .

وكل لحظة من هذه اللحظات تضيف حبة اخرى الى حبنا ، وتقوى الادراك باننا نبات هذه البلاد المدهشة . وان حياتنا خارجهـا وبدونها مستحيلة وبلا معنى ولا شيء .

عندما تسكن فى بيت خشبى او فى كوخ حارس الغابة فانك لا تستطيع نسيان ان فى هذا المكان ، بالقرب منك ، وراء عتبة البيت العالية ، وراء الاروقـة الصغيرة ذات الخصاص ، حيث توصوص الفراخ ، تبدأ مملكة الرسم .

ويكفى ان تتخطى العتبة لترى فى الحال شجرة دردار معمرة ودربا يتلوى بين اجمات الجوز نحو جدول عميق ، وامراة فى بلوزة حمراء تحمل الى القرية على خشبة التوازن بياضات خشنة مغسولة .

واللوحات لطيفة فى كونها تجعلك فى اية لحظة تدخل فى عالم طبيعتنا المالوف ، ولكنه الجديد دائما . لا يكلفك ذلك غير ان تعبر عتبة الاطار المذهب .

ان رسام المنظر الطبيعى الحقيقى يعرف دائما اين يمكن ان يجد اكثف الجمَد ، واين تنمو اعظم اشجار الشوح فى البلاد ، واية الوان تحتاج الريح النهرية ، واية الوان للمطر فى ساعات الغسق . ولو كتب عن كل ذلك لخرج كتاب جذاب لا نظير له فى الادب .

ويعمل رسام المنظر الطبيعى تحت السماء المكشوفة فى اى وقت من اوقات العام ، وفى كل طقس ، وحتى فى تلك الايام اللعينة ، حين يتساقط ثلج رطب مع مطر فوق المستنقعات الذائبة ، وحذاؤه الطويل مملوء بالماء ، والريح الحادة تخلع الاطار المشدودة عليه القماشة من جميع الجهات . ذلك لانك فى الايام الاخرى لا ترى جميع الوان اكفهرار الجو وانعدام الراحة والسماء الثقيلة الاردوازيـة — جميع الوان الفترة التى يطلق عليها سوء الطقس الربيعى والرطوبة .

وبمقابل ذلك فاية متعة فى العودة الى كوخ حارس الغابة الضيق والدافئ مع ذلك حيث يفوح السقف برائحة الخشب الرطب المغطى بالاشنة والرماد الحاد من الموقد الروسى ، والسماور الدؤوب المنحنى يغنى ناعسا ، والاحاديث تدور وراء الشاى المصبوب فى اقداح قديمة معوجـة الحوافى حول اقتراب الربيع ، وكيف ان الشناقيب قد جاءت ، حسب رواة الحكايات القدامى ، مـن وراء البحر ، واعتقت الربيع من الاسر .

اوليست سعادة حقا تلك الايام فى كوخ الحارس ، حين تتعزز فتنة حياة الغابة الجوالة هذه بأن يدرك المرء بان عمله المفضل قد انتهى بنجاح ، وبابداعه للوحات جديدة .

ان عمل رسام المنظر الطبيعى الاصيل ليس هـو فقط عمل رسام ، بل وعمل وطنى حقيقى ايضا . ولوحته قصيدة عن روسيا .



وهو مثل يسينين يستطيع انيقول باحقية تامة «وسامجد بكل كيان الشاعر سدس الارض المسمى باقتضاب روسيا» .

ان رسامينا الرائعين يمجدون سدس الارض هذا . فلهـــم ، كما كان الناس يحبون ان يقولوا فى الماضى «التكريم والمجد» جزاء وفاقا على انهم يظهرون لنـــا سحر ارضنا الذى لا يسبر له غور — حتى البابونج الخجول المجروف بالمطر على الطريق الريفى ، وحتى تساقط الاوراق فى الغابات ، وحتى السماء الشاحبـــة الناظرة فى اعماق المياه الصافية .



فى تاريخ قديـم جدا ، فى عام ١٩٢٤ ، وانا فى تفليس كتبت اوتشيركا * عن الرسام الجورجى نيكو بيروسمانيشفيلى (فى جورجيا يدعى نيكو بيروسمانى) . ثم حدث فى الحياة عدد كبير من مختلف الاحداث واضحى الاوتشيرك ناقصا . ولم اعد الى ذلك الاوتشيرك الا بعد اربعين عاما ، واكملته .

طوال هذه الاعوام — مـن عام ١٩٢٤ حتى ١٩٦٠ — شعرت بالرهبة وخجل خفيف من اننى لـم أكمـل الوصف الخاطف لحياة بيروسمانى ، وكاننى تركت رفيقى فى منتصف الطريق ، وسرت وانا فى طريقى دون ان احفل به .

وانا انشر كلا الاوتشيركين — القديم والجديد — غير خائف من الثغرة الزمنية بينهما ، وهى ٣٦ عاما .

. . . فى تفليس توفى الرسام العصامـى المتشرد نيكـو بيروسمانيشفيلى . فى حياته لم تقدم لوحاته ، واشتريت لقاء قدح من النبيذ . اما الآن فقد تكونت جماعة كاملة من خبراء الرسم الذين يبحثون ، ويشترون ، ويدرسون اعمال «فان دونغين» الجورجـى هذا .

. . . اليوم فى الغسق ما يزال نهر كورا كالعادة يدمدم بغموض تحت الجسور ، والسموات المنجمة تتورد بالكاد فوق كاخيتيـا ، وكان احدا اضاء بعود ثقاب حافة قدح بلورى اسود . والجو هادئ جدا . وفى الافنية الناعسة وحدها ، بالقرب من ميتيخ تنخر الحمير وتشحط محركة آذانها المخملية الدافئة .

وتقترب الساعة المذهلة فى الايام الاعتيادية البسيطة ، حيث يفقد كل شىء الوانه فجأة ولعدة لحظات : السماء والجبال الرمادية . اما الحدائق فى سديم اشجار اللوز الوردى فتصبح خيالية رمادية .

* فضلت استخدام اللفظة الروسية очерк (اوتشيرك) لعدم وجود مرادف لها فى اللغة العربية وهى تعنى احد اشكال رواية الحدث يجمع بين الوثائقية والتعميم .
وقد قال عنه غوركى انه يجمع بين «البحث والقصة» مقتبس عن القاموس الموسوعى من قبل المترجم .

وفوق الارض المغطاة بطبقة غبار رقيقة جدا ، والفاقدة الظل يطوق صمت ما قبل الفجر ببطء الى حد الرنين فى الاذن . وهذا الصمت يجعلك تسمع سريان الدم فى جسدك المتعب من الارق .

فى هذا الصمت افكر طويلا فى الرسـام الذى خلق القفقاس الاشيب ، الاسود الباهت المتطامن — القفقاس بلا ظلال ، بلا شمس ، فى ضوء الفجر ببطء . انه القفقاس الذى يمكن ان يتخيله السكارى والمتشردون والمتسكعون فى الفجر على الارصفة الرطبة . افكر فى الرسام ، فى بيروسمانى الفقير والموهوب .

ولكن اول شعاع برتقالى للشمس على وجهى وصيحات باعة الالبان المبحوحين تطرد هذه التخيلات ، ويعود من جديد نهـار تفليس ، كقصة حارة ، مغلفا فى البساط الازرق من السماء الثقيلة والغبار الاصفر .

واحيانا ، فى الامانى ، امعن النظر فى لوحات بيروسمانى على ضوء مصباح كيروسين معلق على علو . انها تثير الرهبة . الوان قديمة ، رماد فجر ، ظهور مهشمـة لجبال سوداء ، رسم بدائى واحيانا رخيص ، وجوه منتفخة لامراء ، عالم خيالى لاصحاب المطاعم والحمالين الملفحين بالشمس والمساكين المتعبين ذوى العيون الشبيهة بعيون الكلاب ، والبوابين ، والفلاحين فى الولائـم ، والممثلات البائسات من مسارح الضواحى ، عالم كان يقيمه على قطع من المشمع (رسم بيروسمانى معظم اعماله على مشمعات سوداء وبيضاء وعلى التنك) . وكذلك عالم كامل لوحوش مروعة تصغـى بخوف الى الليل وهدير الانهار الليلية .

ان بيروسمانى جورجى بسيط ومتسكع . كان يبيت فى سراديب ناخالوفكا وافلابار ، ويرسم اعماله المذهلة لقاء الغداء فى مطعم شعبى ، ومأوى ليلى ، لقـاء زجاجة من النبيذ ، فى سبيل الا يموت جوعا على ارصفة شوارع تفليس المسفوعة بالحرارة .

ان انسانا لا يكاد يحسن توقيع اسمه تحت لوحاته كان يدخل فيها بخفة وبساطة وبدون اثر لاى اجهاد اكتمال الخطوط ، والتركيب الدقيق الريّان والالتماعات الدقيقة للمنمنمات الفارسية ، والقِدَم الاسطورى الشبيه بقباب الكنائس الارمنية ، وكل سذاجته الطفولية

والتلوين الغريب علينا ، نحن الاوربيين ، لليل تفليس المفاجىء ، والنهار المتعب المغبر والقمم الثلجية فى الضباب الجاف .

كان يرسم راسا وبشكل نهائى وببساطة ، ويلقى بعض الاصباغ والخطوط تاركا بدلا من الصبغ الاسود قماشة المشمع خالية من كل صبغ ، يرسم كما نتحدث ونشرب ، كما يبكى طفل ، كما يقهقه بائع متجول أحمر البوز . وكان جمهور المطاعم الرخيصة ينظر كيف كان يرسم لوحاته بسرعة مذهلة ، ويعبر عن فرحته بصيحات مبحوحة وبالتصفيق عندما كانت تزدهر على المشمع خلال صور الاشخاص النصفية ومناظر القفقاس الطبيعية .

وقد شاهدت صورته . رجل طويل هادىء ذو جبين متحدر وعينين طفوليتين ، وكان ينطوى على مرارة ، اسى صامت عن الحياة . فقد وهبها احلامه . ولم يتلق منها غير الاحساس اللاذع بالرهبة .

كان يرى فى المطاعم الرخيصة ذات الرائحة الحامضة من البراميل القديمة عتالين فقدوا اصواتهم من التعب واطفالا بكما مهجورين واسمالا لا يتقبلها العقل ، تغطى اجسادهم ، وموسيقيين مرتجفى الايدى ، ورقاب الفقراء المعروقة — كل الذين صقلوا الحجارة فى السوق الارمنية ، ولم يتفوهوا بشكوى قط .

كان صامتا ، الا ان الضيق كان يطبق على خناقه باصابع سميكة . وكان موضع حب الذين فى المطاعم الشعبية حيث كان اصحابها يطعمون الزبائن بالفاصوليا العفنة .

. . . «اكتشفوه» بعد عدة سنوات من وفاته فقط . فقد دخل بعض الرسامين الشبان الى مطعم عند المحطة مصادفة ، ووجدوا على الحائط القاتم مشمعات بيروسمانى ، وانبهروا من قوة الرسم غير الاعتيادية لهذا الفنان المغمور .

ومنذ ذلك الحين اصبح بيروسمانى هذرهم ، جنونهم . صاروا يبحثون عن مشمعات بيروسمانى فى السراديب والاقبية والدكاكين الصغيرة فى اطراف المدينة ويشترونها ، وفى تفليس اخذوا لاول مرة يتحدثون عن الرسام الشعبى الاعجوبة المنسى .

ودرسوه بداب واجدين فى كل مرة عمقا جديدا فى اعماله ، حذقا وبساطة ، لمعانا وحكمة فى تركيبه . وقد لملم هؤلاء

المتحمسون لبيروسمانى قصة حياته المحزنة من استنطاقات الحمالين الصعاليك ومن المحادثات مع بائعى الخضروات وصباغى الاحذية .

وحين سئل اصحاب بيروسمانى عن ايامه الاخيرة اجابوا بتجهم :

— اين كنت من قبل ، يا صاحبى ؟ انت الآن تبحث عن كل علامة من علامات نيكو ، ولكن لما كان ما يزال حيا لم تبحث عنه ، فصرعه الجوع . ودفناه فى بقعة ضائعة من المقبرة . ولا حاجة لك الى ان تبحث عن القبر ، يا صاحبى ، فلن تجده .

وذلك نصيب جميع الموهوبين تقريبا : ان يموتوا مغمورين ، لكى ينهضوا بعد سنوات وسنوات من موتهم فوق الحياة اللاغطة الكدرة مثل نهر كورا بكل شفافية ابداعهم وسماحته العظيمة ، ولينفذوا الى قلوب الناس بفرح بهيج .

. . . مرت على بيروسمانى لحظات كان فيها يبتسم . عند ذاك تزدهر اثواب الاطفال تحت السماء النيلية ، وكان الريح تسوق فى الشوارع المشمسة آلاف اوراق الشجر الخريفية وبقع الضياء الزرقاء من السماء ، عند ذاك ينفخ الموسيقيون الشعبيون بشكل مضحك خدودهم الجرداء ، وهم يعزفون على مزاميرهم المتوارثة ، عند ذاك يكون العنب البارد فى الصباح كامد اللون اسود ، وفى القيظ الطباشيرى يتلون باللون البرنزى وحجر القمر قفقاسه ومدينته تفليس كالنار فى الريح . وعند ذاك يصبح واضحا ان لمعان تلوين كان يكمن فى وعى هذا الفنان .

. . . رسم بيروسمانى الكثير من الصور ، والكثير من المقاصف ، والكثير من الفلاحين والشيوخ والحمير والاطفال ، والكثير من النساء السوداوات ذوات العيون النفاذة ، والكثير من الجبليين واهل الفتوة الصامتين . ولهذا فان مشمعاته تحتضن جورجيا كلها ، كل تفليس الرائعة الصفراء مثل حبات الكهرمان ، الوطن الثانى لكل الذين عاشوا فيها ، ولو وقتا قصيرا . ومن خلال حزن مشمعات بيروسمانى تزهر حياة ما وراء القفقاس الاخاذة — عتبة الامصار الاسطورية — الرتيبة كضجيج الانهار الحارة والمزركشة مثل حلة كردية .

وحيوانات بيروسمانى جيدة . وانـــا اتذكر ذلك الاحساس الغريب الذى شعرت به حين رأيت «زرافة» لاول مرة . وكان المساء قد تقدم ،وكان السكون يرقد فى البيت المرجع للصدى ، وفوق جبل داود الميت يميل قمر خانق مغبر . نظرت الى المشمعة ، فنفذت الى عينى نظرة وحشية ندية واسعة الادراك لحيوان اصفر عال . وقد احنى رقبته ببطء ، وبدا وكانه كان ينتظر ان تصدر صيحة فى الحجرات الفارغة المهجورة ، فيندفع بضربة واحدة من حوافره فى الليل المزرق الداخن مقشعرا من ذعر غير مفهوم .

كانت حدائق فيرا واورتاتشال المشهورة تقـــع فى ضاحيـــة تفليس .

وكانت منتجعا صيفيا للترفيه والراحة . وقد حولت كل حديقة صغيرة تقريبا الى مقهى او مطعم .

ونحو المساء ، عندمـــا كان الحر يهبط كان اهالى تفليس يتوافدون الى هناك . ومن كان على حظ من الغنـــى كان ياتى فى العربات ، والافقر مشيا على الاقدام .

وكانت اسماء المقاهى تتميز بالفخفخة وانعدام الذوق . وكان اغلى مقهى يدعى «الدورادو» . ثم جاءت «فانطازيا» و«سان سوسى» و«شانتكلر» و«جنتلمان» .

وعلى مسافة غير بعيدة عن حدائق اورتاتشال كان هناك مـــا يسمى بالشوارع «المرحـــة» . والكثيرون من رواد المقاهى كانوا ياتون فى البدايـــة الى هذه الشوارع ، ويجلبون من هنـــاك فتيات صاحبات .

ماذا كان ينتظر التفليسى فى تلك الحدائق ؟ الطراوة ، والدخان الشذى لشواء لحم الضان ، والغناء والرقص ولعبة اللوتو الحماسية والنساء الجميلات المخشوشنات .

وكانت تجذب بشكل خاص الطراوة تحت افياء الدلب والتوت . وكان يصعب ان يعى المرء كيف كانت تظل هذه الطراوة موجودة ، فى حين كانت تفليس واقعة بالقرب من منخفض حار وفى طوق من الجبال المتلظية ، بل كان من الرهيب النظر الى المدينة من المرتفعات

المجاورة . لقد كان يبدو وكان تفليس تدخن من شدة التوقد ، وما هى الا لحظات وتندلع نار عملاقة .

وربما مصدر هذه الطراوة النافورات او نفحة من الثلوج الجبلية التى كانت تتسرب الى الحدائق بحذر . وفى المدينة كان المرء لا يستطيع ان يتنفس الا قبيل الفجر ، حين تكون البيوت قد فترت حرارتها قليلا خلال الليل . ولكن ما تكاد الشمس ترتفع من كاخيتيا حتى ينسكب الحر المرهق فى الشوارع .

كانت من بين المغنيات اللواتى يغنين فى حدائق فيرا امراة واحدة مكسال ضيقة الخصر عريضة الكتفين ، شعرها بلون البرنز ، ورقبتها رقيقة وقوية ، وجسدها وردى . وكانت تسمى مارغريتا .

وكان رواد المقهى الذى كانت تغنى فيه فى المساء يعتبرونها المانية متروسة ، ولكن صاحب الحديقة ، وهو مينغريلى سريـــع التكدر ، كلما سمع هذه الاحاديث اقام ضجة حقيقية . وكان يصرخ :

– يبدو ان ادمغتكم قد انقلبت كليا فى رؤوسكم ! الم تسمعوا ببلاد تدعى فرنسا ؟

وكان احد الرواد غير الحذرين يرد عبوسا :

– حسنا ، سمعنا !

– الم تسمع بان فى فرنسا ولاية تسمى ايلزا ؟ سمعت ؟ حسنا ، انها من تلك الولاية ، من ايلزا . فرنسية من الدرجـــة العالية . اى ناس هؤلاء ! لا يعرفون ابسط الاشياء ! يعرفون كيف يتشاجرون ، وكيف لا يدفعون باقـــى الفلوس ، يعرفون كيف يمسكون الفتيات فى الشارع ، ويغشون فى الورق . ولكن لا يعرفون على الاطلاق كيف يشغلون عقولهم .

وكانت مارغريتا نادرا ما توافق على تناول طعام العشاء مع الرواد ، ولكنها كانت تقبل بعدم اكتراث ، الهدايا الصغيرة منهم كشىء تستحقه . . . ثم كانت توزع الهدايا على الصديقات . فقد كانت وحيدة تماما .

وعلى العموم كان من الصعب ان يفهم المرء ماذا كانت تظن فى الجميع ، ولا سيما الرجال . وكان الكثيرون يودون لو يجعلونهـــا عشيقتهم .









كانت قليلة الكلام ، ولكنها كانت تغنى بصوت غير اعتيادى ، وثنائى كما كان يقال .

وكان يفد لسماعها فنانو الاوبرا والموسيقيون . فقد كان غناء مارغريتا يخلق الاحساس كما لو أنه مصحوب دائما بهمس شبيه بالصدى الضعيف .

وكان الممثلون يقولون ان ذلك ما يدعى بالخداع «الصوتى» ، مثلما يحدث ، مثلا ، «خداع البصر» . وفى واقع الامر لم يكن هناك اى صوت ثان .

كانوا يتحدثون ويتناقشون بهذا الشكل ، ولكن على الرغم من ذلك كان كل واحد يسمع ، حين تغنى مارغريتا ، رنـة مزدوجـة لصوتها . وكان الصوت الرئيسى كأنْ ذهبيا ، والثانى فضيا .

وذات مرة حجز المغنون والموسيقيون مطعم «فارياغ» طوال المساء ، ودعوا اليه مارغريتا ، ونظموا لعشاق الغناء حفلة مغلقة .

وبعد الحفلة نهض قائد فرقـة الموسيقى العجوز ، وقال ان الصوت الانسانى هو اعقد آلة موسيقيـة . وهو اغنى من البيانو والكمان ، ولهذا فان تواجد عدة طبقات فى الصوت فى آن واحد ممكن تماما وطبيعى .

وكانت مارغريتا تسمع وتشرب النبيذ مطرقة الراس ساهية . وقد اضفى لون فستانها الاحمر على شعرها التماع الحريق . وبين الفينة والاخرى كانت ترفع عينيها ، وتطوف بها على كل الجالسين وراء المائدة . ولكن لم يكن فى الاعماق المغبشة لحدقتيها الق ولا ابتسامة .

وكان ثمة جورجى طويـل نحيل جدا ذو وجه نحيف وعينين حزينتين فى سترة قديمة قد وقف متكئا على عضادة الباب ينظر الى مارغريتا دون حراك .

لقد كان ذلك الرجل هو الرسام المتشرد نيكو بيروسمانيشفيلى .

وكان يحب مارغريتا . وكانت هى له الشخص الوحيد فى الدنيا .

وكان كل بوصة من الارض لم تطاها قدم مارغريتا تبدو له فضلة من صحراء . ولكن كل بقعة تحتفظ بأثرها كانت له ارضا مباركة ، وكل حبة من الرمل عليها تتالق كماسة صغيرة .

على هذا النحو كان الشعـراء الفارسيون من النوع الوسط سيتغنون بمشاعر بيروسمانى . ومع ذلك فانهم سيكونون على حق ، رغم التعبير المزركش .

كان اليوم الذى لا يسمع فيه نيكو صوتها افرغ يوم على الارض بالنسبة له .

والحب المفرط يثير رغبات يتعذر تحقيقها على الرجل المتزن . ومن من الناس يمكن ان تخطر فى راسه فى الحالة الاعتيادية فكرة وحشية كان يقبل صوت انسان او يمسد بحذر على راس الطائر الصافر اثناء صفيرة ، او ، اخيرا ، يقهقه مع العصافير بينما هى تثير حوله الصياح والعراك .

فى بعض الاحيان كانت تظهر لدى بيروسمانى رغبة مذهلة فى ان يلمس حنجرة مارغريتـا الراعشة ، وهى تغنى ، رغبة فى ان يمس بالنفس فقط هذا الصوت الغامض ، هذه النفثة الدافئة من الهواء ، التى تصدر مثل هذا الرنين الرائع المثير للمشاعر .

يقول الناس ان الحب الكبير اكثر من اللازم يخضع الانسان .

ولم يخضع حب نيكو مارغريتـا . وهذا على الاقل ، مـا كان الجميع يظنونه . ولكن مع ذلك كان من المستحيل ان يفهم هل كان الامر كذلك حقا ؟ ونيكو نفسه لم يكن قادرا على ان يقول ذلك .

وكانت مارغريتا تبدو وكأنها تعيش فى حلم . وكان قلبها مغلقـا للجميع . كان الناس بحاجة الى جمالها . ولكنها ، على ما يبدو ، لم تكن هى نفسها بحاجة اليه ، رغم انها كانت تحرص على مظهرهـا الخارجى ، وترتدى جيدا . فقد كانت وهى ترفل بالحرير وتعبق بالعطور الشرقية تجسيدا للانوثة الناضجة .

ولكن جمالها كان ينطوى على شىء رهيب ، ويبدو انها نفسهـا كانت تفهم ذلك .

لم يكن احد يعرف من اين جاء بيروسمانى .

وفيما بعد ، بعد وفاته ، علم الرسام كيريل زدانيفيتش من الشذرات والنتف سيرته ، وعلى الرغم من انها غير كاملة ، الا انها استعادت حياته .

ولد بيروسمانى فى عام ١٨٦٢ فى قريـــة ميرزاكى فى منطقة كاخيتيـــا ، فى عائلة فلاح فقير . وقد اعطاه والده ، وهو صبى ، ليخدم فى عائلة موسرة فى تفليس .

وقد اشتغل بيروسمانى خادما حتى سن العشرين . ثـم عمل بائع تذاكر على الخط الحديدى لما وراء القفقاس . وفى تلك الفترة اخذ يرسم للمرة الاولى . وكان عمله الاول صورة لناظر المحطة وزوجته . والظاهر انها كانت صورة لاذعة وكاريكاتورية ، لان ناظر المحطة طرد بيروسمانى من الخدمة حالما رأى الصورة .

وماذا كان عليه ان يفعل ؟ لـم يكن بيروسمانى يستطيع ان يزاول ما كانت تزاول غالبية البائسين فى تفليس آنذاك — الاعمال التافهة المريبة والخداع الناجح والفاشل . فقد كان انقى قلبا بكثير واكثر عزة بالنسبة لهذه الاعمال .

لم يكن متبطلا وصعلوكا تفليسيا شبه شحاذ مرحا ووقحا . ولم يكن يقدر ، كالصعلـوك ، ان يصنع نقودا «من الهواء» ، من التندر ، من المزاح غير اللائق ، و«نهيق الحمار» .

اخذ بيروسمانى فى احد الاوقات يبيع الحليب فى ركن خلفى من السوق ، وراح يقتات على دخله الشحيح على نحو ما . ولكن حتى هذه المزاولة اقرفته .

وقد ملأ كل دكانه بالرسوم ، فكان اشبه بزهرة متفتحة . وكان يوزع لوحاته الاولى هدايا ، وكان سعيدا حين تقبل عن رغبة .

واحيانا كان يوزع لوحاته ، او «لويحاته» كما كانت تسمى فى السوق ، على بائعى مختلف الاشياء التى قلما يحتاجها انسان . وكانت هذه اللوحات «لاصحاب الهواية» كما يقول ، وكانت تسمى بلفظة اجنبية مبهمة هى «بريك ابريك» ولكن هذه اللفظة ، حسب رأى بائعى الاشياء المستعملة ، مغرية وعلى الاخص لانها كانت غير مفهومة لا للبائعين انفسهم ولا لبيروسمانى ولا للمشترين .

ولكن مراهنة البائعين على هذه الكلمـــة لم تنجح . فقد كان المشترون يندهشون بشدة ، بل ويفزعون ، ولكن لـــم يكونوا يأخذون اللوحات . وكان البائعون يدفعون قروشا زهيدة لقـــاء لوحاته .

وكان بيروسمانى يتضور جوعا . كان احيانا يستجير بحائط احد البيوت ، او بجذع نخلة متربة عتيقة كالعالم ، ويجلس ساكتا حتى يكف رأسه عن الدوران .

واضطر الى ان يعود الى مسقط رأســـه ، الى القرية ، حيث كان يتحتم ان يقع على كاهل بيروسمانى كل عبء التقاليد الحياتية والعائلية .

وملأ بيروسمانى بيته فى القرية ايضا بالرسوم من الاعلى الى الاسفل حاظيا باعجاب كبير من قبل الاهل والجيران .

ثم اقام بيروسمانى وليمة فى هذا البيت . وبعد ذلك رسم اربع لوحات تصور هذا الاحتفال الريفى . كانت الوليمة مدهشة لانها ، خلافا لغالبية الولائم لم تكن تضم اغنياء . كان الضيوف بين وقوف وجلوس ومستلقين وقد رفعوا اقداح النبيذ عاليا . وقد رسم بيروسمانى هذه الجمهرة الزاهية المتأنقة بجرأة كبيرة .

وفى آخر الامر تفتق ذهن بيروسمانى عن مخرج بدا له موفقا . عاد الى تفليس ، وبدأ يرسم لافتات زاهية الالوان للمطاعم لقاء عدة وجبات من الغداء مع النبيذ وعدة وجبات من العشاء . وكان يأخذ قسما من مورده نقودا ليشترى بها الاصباغ ويدفع اجرة المأوى .

ولكن النقود لم تكن تكفى ابدا لقماشات رسم . فكان اصحاب المطاعم يخلعون بطواعية لافتات التنك القديمة ، ويقترحون ان يرسم عليها بعد أن يطلى مقدما لونها المسود . الا ان بيروسمانى لم يكن يوافق على ذلك .

كانت لافتات التنك تصدأ . وكان بيروسمانى يعرف انه وان كان رساما غير متعلم وعلى اى مستوى كان ، او كمـــا يقول الروس ، رساما متعلما بنفسه ، فانه يستطيع ، على ما يبدو ، ان يقف فى صف بعض الرسامين الكبار (وكان قد شاهد صورا جيدة منسوخة للوحاتهم) ، وربما حتى فى صف دى لاكروا نفسه ، وكان قد حدثه عن هذا الفرنسى بكثرة طالب كان يحلم ايضا بأن يكون رساما .

لم تكن هناك قماشات رسم ، وبدأ بيروسمانى يرسم على الشيء الوحيد الذى كان متوفرا دائما فى كل المطاعم ، وحتى فى ارخصها ، وهو المشمع البسيط المأخوذ من على مائدة .

كانت المشمعات بيضاء وسوداء . وكان بيروسمانى يرسم تاركا رقعا غير ملونة على المشمعة فى المكان الذى يراه ضروريا .

وفيما بعد استخدم هذه الطريقة ايضا فى رسم صور الاشخاص . وكان الاثر الذى تركته بعض الاعمال المرسومة بهذه الطريقة غير اعتيادى .

وقد انطبعت فى ذهنى الى الابد مشمعته «الامير» وفيها يقف عجوز شاحب فى سترة جركسية سوداء على ارض صغيرة وفى يديه قرن لشرب النبيذ . وقد ظهر خلفه القفقاس الجبلى وقد رسم الى حد التخطيط الطوبوغرافى تقريبا . وكانت سترة الامير فى هذه المرة قطعة غير ملونة من مشمع اسود اللون غامق حاد بشكل خاص على اضاءة الفجر الشاحب . ولم استطع ان افهم بأية اصباغ نقلت هذه الاضاءة .

وكان بيروسمانى يحصل من مثل هذه الصور ، فى افضل اوقات حياته ، على عشرين الى ثلاثين روبلا فقط .

وقد اعجب الرواد بلافتات بيروسمانى : العنب الشفاف ، والقرعيات ، والبرسيمون البرتقالى ، وحدائق يوسف افندى الملتفة وصور الطبيعة الساكنة الغنية لمختلف الاعشاب ، والباذنجان ، وشواء اللحم والجبنة والسمك المشوى «لوكو» .

الا ان بيروسمانى لم يستطع ان يرسم الى ما لا نهاية هذه الطبيعة الساكنة للافتات . فان الافراط ، كما هو دائما ، كان يثير الضجر . وعندئذ اخذ بيروسمانى يرسم على اللافتات ولائم كثيرة على العشب ، على اخونة الفلاحين الضيقة . وظهرت على اللافتات صور اشخاص ومنظر طبيعى وحيوانات ، وبشكل رئيسى ، الحمير الكثيرة التحمل .

واحيانا كان بيروسمانى يبتكر اسما للمطعم متشاورا مع صاحبه . وكلما كان الاسم مستعصيا على الفهم ازداد حظه من الاعجاب .

كان بيروسمانى يكتب ضاحكا فى نفسه «شواء بالكهرباء» او «لا تشرب وحدك» .

وكانت هذه الاسماء الطنانة محبوبة بشكل خاص فى الريف الجورجى فى مناطق اوزيرغيتى واخالكالاخى او ساغاريدجو .

وانا لم ادرك بيروسمانى وهو حى ، فقد توفى قبل وصولى الى تفليس .

وقد ترك بيروسمانى ثروة هائلة من الرسم . قضى كيريل زدانيفيتش جملة من الاعوام وهو يجمع لوحاته من الاشتات بالمعنى الحرفى لهذه الكلمة . واكتشف بيروسمانى كله تقريبا ، وانقذ اعمال رسام شعبى رائع ، وقام بمأثرة حقيقية ، واهدى فيما بعد مجموعة لوحات بيروسمانى للدولة ، وبكلمة اخرى للشعب .

فى عام ١٩١٣ التقى كيريل زدانيفيتش فى بتروغراد بالرسامة غونتشاروفا والرسام لاريونوف . وقد جاءا الى بتروغراد قادمين من مولدافيا ، وقد جلبا معهما لافتات مضحكة وزاهية جدا عثرا عليها فى تيراسبول .

وقد اعجب كيريل زدانيفيتش كثيرا باللافتات . وبعد قليل وجد فى تفليس لوحة اكثر جمالا فى مطعم «فارياغ» واشتراها . وكانت بريشة الرسام المغمور نيكو بيروسمانيشفيلى .

وكان لكيريل معارف من الفلاحين واصحاب المطاعم والموسيقيين المتجولين ، والمعلمين الريفيين . وقد عهد اليهم جميعا بالعثور على لوحات ولافتات بيروسمانى له .

فى البداية باع اصحاب المطاعم اللافتات لقاء قروش زهيدة . ولكن سرعان ما شاع فى جورجيا ان هناك رساما من تفليس تشترى لافتاته لتصدر الى الخارج على حد ما زُعم ، وبدأ اصحاب المطاعم يزيدون الثمن . وهرعت ماريا زوجة كيريل زدانيفيتش الى سوق ديزرتير لتبيع اقراطها الاخيرة وآخر سترة . وانطلق كيريل فى تفليس على أمل ان يلملم ولو قليلا من النقود .

وفى نهاية الامر جلب كيريل المتجهم (كان كلما عظم تاثره ازداد تجهما) لوحة ، وبسطها صامتا ، وقال «حسنا ، هذه هى !» وظلت هذه اللوحة بعد ذلك معلقة عدة أيام فى مكان الصدارة فى غرفة الطعام .

وبعدها نام من الانفعال حتى شبع من النوم ، وفيما بعد بدأ توافد محبى الرسم . ومن غرفتى كانت تسمع كل الاحاديث فى غرفة الطعـــام ، وسرعان ما حفظت عن ظهر قلب تواريخ كل اللوحات الجديدة .

بدأ تعرفى ببيروسمانى منذ اليوم الاول من اقامتى فى تفليس فى شقة زدانيفيتش . فقد استأجرت عنده حجرة .

كانت جدران هذه الحجرة قد علقت عليها مشمعات بيروسمانى من الطنف الاعلى حتى الجزء الاسفل .

فى يوم وصولى لم الق عليها الا نظرة خاطفة . وفضلا عن ذلك فقد كانت الحجرة معتمة بسبب نهار تفليس الشتائى ومع ذلك فقد لازمنى طوال الوقت اضطراب غير مفهوم ، وكأنما اُخذت من يدى عبر بلاد مذهلة عجيبة تماما ، كأنما رأيتها من قبل ، او حلمت بها منذ زمن بعيد ، ومنذ ذلك الحين اتحرق لهفة لانظر فى هذه البلاد ، وان الملم نفسى ، واتعرف عليها بكل تفاصيلها .

وغفوت والاضطراب يملأ قلبى ، الاضطراب من لوحات غير مالوفة لى ، كانت تحيط بى صامتة ، وغير صارفة نظرها عنى ، كما بدا لى .

واستيقظت فى وقت مبكر جدا على ما يبدو . كانت الشمس الحادة الجافة ترتمى منحرفة على الجدار المقابل .

نظرت الى هذا الجدار ، وقفزت . وبدأ قلبى يدق دقا ثقيلا سريعا .

كان يحدق فى عينى من الحائط حيوان غريب مشدود كالوتر وهو يتعذب بهلع وتساؤل ووضوح ، ولكنه غير قادر على ان يتحدث عن عذابه هذا .

كان هذا الحيوان زرافة . زرافة اعتيادية يبدو ان بيروسمانى رآها فى حديقة الحيوانات فى تفليس .

وصرفت بصرى عنها الا اننى كنت احس واعرف ان الزرافة تتفرس فىّ ، وتعرف كل ما يدور فى خلدى .

كان هدوء ميت يسود البيت كله . وكان الجميع ما يزالون نائمين . صرفت بصرى عن الزرافة ، وبدا لى فى الحال انها خرجت من الاطار الخشبى البسيط ، وهى واقفة الى جانبى تنتظر ان اقول شيئا بسيطا جدا ومهما يبطل السحر عنها ويحييها ، ويعتقها من الالتصاق الطويل الامد بهذه المشمعة الجافة المتربة .

وفجأة صدر من الفناء صيـــاح مستميت «ماتســـونى ! ماتسونى !» . على هذا النحو كان باعة الماتسونى (اللبن المختر الجورجى) يصيحون باستماته وانتحاب تقريبا ، لسبب لا ادرى به . وكانوا يحملون بضاعتهم ضاربين فى المدينة محملين عدول جرار اللبن المختر على حمير صغيرة سوداء مغبرة ، وكانمـــا السابلة مسحوا عليها اقدامهم لوقت طويل ، كما يمسحون على الممسحة عند عتبات البيوت .

وجفلت من صياح باعة اللبن واخذت بالأنين .

الا ان الرجفة لم تزايلنى ، ورحت ائن اشد فاشد محاولا ان احتفظ برباطة جأشى . دخلت الزرافة المشمعة الكامدة . وادركت ان نوبة قاسية من الملاريا قد اعترتنى .

وبعد قليل عرفت كل لوحات بيروسمانى تقريبا . وقـــد ساعدتنى على ان افهم واحب القفقاس — البلاد المعقدة والرائعـــة كالموزاييك .

واضحى بيروسمانى بالنسبة لى موسوعة لجورجيا مصـــورة طليقة فى تعبيرها ، ولناسها وتاريخها وطبيعتها . وانطبعت فى ذهنى الى الابد مناظر القفقاس الطبيعية ابتداء من الليل المقمر السحرى فوق ترسانة تفليس ، وانتهاء بالمنظر الطبيعى المتلظى للجبال عند قدمى شامل .

كانت تتزاحم على المشمعات المغبرة قليلا فى شقة زدانيفيتش مئات من فلاحى بيروسمانى النحيفين ، ومزارعى الكروم المرحين ، والنساء الفقيرات الخجولات ، والصيادين ، والاغنياء المتعجرفين ذوى الشوارب السميكـــة ، والبوابين التفليسيين ذوى اللحـــى

الشعثاء كمكانيسهم المقضومة ، والموسيقيين اللامبالين . ومن
حين لآخر كان احد الناس يتذكر هذه اللوحة او تلك فيقص شيئا
طريفا عنها .

كان الناس يحتلون جزءا كبيرا من لوحات بيروسمانى ، ولكن
ثمة مكانا خاصا فيها كانت تحتلـــه مختلف الحيوانات — الاسود
والغزلان والجواميس والزرافات والجمال والحمير اصحاب الرسام
الوديعون .

ان الفن دائما يمس قلب الانسان ، ويعصره قليلا . والانسان
لا ينسى ابدا هذا المساس الواضح للشىء الجميل .

الانسان لا ينسى تلك الحالة من الامتلاء الروحى والتحليق ،
التى يقدمها له احيانا بيت واحد ، واحد فقط من الشعر الرائع ،
او لوحة عاشت عدة قرون لتحمل لنا جمالها .

ولو لم اعرف بيروسمانى لرأيت القفقاس غير واضح المعالم
مثل صورة فوتوغرافية باهتة لم تحمض بشكل كامل ، بلا الوان
ولا ظلال ، بلا تفاصيل ولا خطوط بارزة ، وبدون الظلام المزرق
لرحابه نصف الشرقية ونصف الغربية .

لقد ملأ بيروسمانى القفقاس لى بنسغ الثمار وحدة الالوان
الجافة . وقد ضمنى الى هذه البلاد التى تحس فيها فى آن واحد
بالفرح والحزن الخفيف غير المفهوم . على النحو الذى تلمع فيه
عيون الحسناوات الجورجيات بالمرح والحزن المكبوت . وهن فى
العادة يختفين بسرعة وخفة بالزحام ، هؤلاء الحسناوات ، رغم
رجاء الشاعر الرقيق الموجه اليهن :

التفتى الىّ ، يا حبيبتى ،
يا حبيبتى ، لفتة منك الىّ !

ان ذلك الصباح الصيفى لم يختلف فى البداية عن الصباحات
الاخرى . كانت الشمس ترتفع من وراء القفقاس بقوة لا توقف
كما هى دائما لاهبة كل شىء فيما حولنا ، والحمير تنهق كشانها
دائما ، وقد ربطت الى اعمدة التلغراف ، ونفس اولئك النـــاس

بشواربهم السوداء ذات المسحة الضارية يسيرون فى الشوارع
يحملون صفيحات كبيرة ينادون دون ما رغبـــة «نفط ! نفط !»
ليبيعوا الكيروسين لربات البيوت .

كان كل شىء كما هو دائما : نهر كورا يضج عند الطواحين
عند جسر الحمير ، وعربات الترام شبه الفارغة ترن رنينا مخلخلا.
وكان الصباح ما يزال غافيا فى احد الازقة فى سولولاكى ، والظل
ينطرح على البيوت الخشبية الواطئة الرمادية من تعاقب الزمن .

فى احد هذه البيوت كانت نوافذ الطابق الثانى مفتوحـــة على
مصاريعها ، ووراءها كانت تنام مارغريتا ، وقد غطت عينيها رموش
ضاربة الى الحمرة .

وفوق سولولاكى كان جبل داود وخط الترام المعلق عند قبر
غريبويدوف يبدوان وكانهما فى زجاج سائل . وقد نما اللبلاب على
جبل داود . وكنت غالبا ما اسير فيه الى متاتسميندا المقدسة ،
واشاهد هناك قبرى الشاعرين الجورجيين العظيمين : ايليـــا
تشافتشافادزه واكاكى تسيريتيلى . لقد مدّت غنائيتهما الشعريـة
وميلهما فى الوقت ذاته الى السخرية الثقافة الجورجية بعمق خاص ،
واحاطاها بالهواء القوى الرهيف للوضوح الكلاسيكى . وقد دفن
فى ذلك المكان معاصرنا تيتسيان تابيدزه المدهش فى رقته وسعة
عقله .

ولكننى احول ذهنى .

وبشكل عام كان من الممكن ان يكون الصباح اعتياديا للغاية
حقا لو كنت لا اعرف انه صبـــاح اليوم الذى ولد فيـــه نيكو
بيروسمانى ، ولو لم تظهر فى هذا الصباح بالذات فى زقاق ضيق
فى سولولاكى عربات تحمل حمولة نادرة وخفيفة .

كانت هذه الحمولة من الخفة ، على ما يبدو ، بحيث ان العربات
لم تصرف تحتها ، بل ارسلت دمدمة لا تكاد تسمع ، وهى تنط
على احجار الرصيف الكبيرة .

كانت العربات محملة الى الاعلى بزهور مقطوعة مرشوشة بالماء
مما جعل الزهور تبدو وكانها قد تغطت بمئات من قويسات قزح
الندى قبيل طلوع الفجر .

وتوقفت العربات عند بيت مارغريتا . وتبادل سائقو العربات
الحديث فيما بينهم بصوت خافت ، واخذوا ينزلون ملء احضانهم
زهورا ، ويلقونها على الرصيف والجادة عند العتبة .

وعندما انصرفت العربات الاولى ، وفرش الطريق كله بالزهور
ظهرت دفعة ثانية من العربات لتحل محل الاولى . وبـدا وكان
العربات لم تكن تاتى بالزهور الى هنا من تفليس فقط ، بل من
جورجيا كلها .

وملأت رائحة الزهور شارع سولولاكى . وظهرت فى النوافذ
ربات البيوت الأوليات . مشطن على عجل شعورهن السـوداء ،
ورحن ينظرن بنهم الى المشهد المدهش : حوذيـة عربـات
اعتياديون للغاية ، وليسوا سراق «الف ليلة وليلة» الاسطوريين
عباوا الشارع كله بالزهور ، وكانما كانوا يريدون ان يصلوا
بها الى الطابق الثانى من البيوت .

وايقظ مارغريتا ضحك الاطفال وهتافات ربات البيوت . قعدت
على السرير وتنهدت . كان الهواء مغمورا ببحيرات كاملـة من
الروائح المنعشة والمداعبة ، الباهرة والناعمـة ، الفرحـة
والحزينة . ولعل ذلك كان رائحة الرحاب السماوية المتبقية بعد
العبور البطىء للجو السماوى الليلى المنجم فوق ارضنا ، او رائحة
جنين بذرة ملونة اعتياديـة كان مطمورا خلال زمن طويل تحت
سحابة صغيرة ، وقد اطلقـه الآن الماء والدفء واملاح الارض
القوية .

وكان الناس قد تجمعوا على طرفى الزقاق . يحدقون فى المنظر
الغريب غير المفهوم .

واقلق الناس غموض ما كان يجرى ، ولهذا لم يعزم احد على
ان يكون البادئ فى وطأ هذا البساط من الزهور الذى كان يصل
الى ركب الاطفال .

اما الاطفال الصغار فكان من الممكن حتى ان يضيعوا فى هذه
الاكوام من الزهور . ولهذا فان النساء اللواتى ملأهن الاعجـاب
والفخر من معرفة السر المقترب تماما من عتباتهن المحكوكـة
المالوفة الى آخر شق فيها (كن يعرفن كل شق لانهن كن يضطررن

الى غسل العتبات كثيرا) كن يمسكن بايدى اطفالهن بقوة ، ولا
يتركنهم عنهن .

وما اكثر ما كان من انواع الزهور ! ان من العبث تعدادها !
الزنبق الايرانى الذى ينمو متأخرا . والاقاصيا الكثة بتويجاتها
المتوامضة فضة ، والزعرور البرى ، التى كانت رائحته قوية قوة
التربة الصخرية التى نما عليها ، وزهور الحواشى الزرقاء الرقيقة ،
والبغونيا ، والعديد من شقائق النعمان المختلفة الالوان ، وصريمة
الجدى الحسناء الانيقة فى غمامة ورديـة ، والزهيرات الحمراء
للايمبوميا والسوسن والخشخاش الذى ينمو دائما على الصخور
اينما سقطت ولو قطرة صغيرة من دم الطير ، والكيوسين والفاونيا
والورود . ورود ، وورود من مختلف الاحجام ، ومختلف الروائح ،
ومختلف الالوان من الاسود الى الابيض ، من الذهبى الى الوردى
الشاحب كالفجر الباكر . وآلاف من الزهور الاخرى .

ارتدت مارغريتا القلقة ملابسها على عجل ، وهى ما تزال لا
تفهم شيئا . وقد ارتدت اجمل واغلى فستان لها ، كمـا تحلت
بالاسورة الثقيلة ، ورتبت شعرها البرنزى ، وراحت تبتسم ، وهى
تلبس ، دون ان تدرى لاى شىء . ثم اخذت تضحك ، ثم ظهرت
الدموع فى عينيها ، الا انها لم تمسحها ، بل نفضتها فقط بحركة
سريعة من رأسها . وتطايرت قطرات الدموع الصغيرة بفعل ذلك
الى مختلف الجهات ، وظلت وقتا طويلا تتوهج على فستانها .

حدست ان هذا الاحتفال قد اقيم لها . ولكن من اقامه ؟ ولأية
مناسبة ؟ وفى تلك اللحظـة تذكرت ان اليوم هو يوم ميلاد
بيروسمانى . فلربما ارسل لها كل هذه التلال من الزهور ذكرى
لذلك اليوم المنسى ؟

ولكن لماذا ارسلها فى يوم ميلاده ، لا فى يوم ميلادها ؟

وفى ذلك الوقت عزم شخص وحيد ، نحيل وشاحب ، على ان
يتخطى حدود الزهور ، وسار على الزهور ببطء نحو بيت مارغريتا.

وعرفه الجمهور وصمت . لقد كان ذلك هو الرسام البائس
نيكو بيروسمانيشفيلي . ولكن من اين اخذ كل هذه النقود ليشترى
هذه الاكمات من الزهور ؟ وكم من النقود !

سار الى بيت مارغريتا يمس الجدران بيده .

وشاهد الجميع كيف ركضت مارغريتا للقائه ، ولم يكن احد من الناس قد رآها قط فى هذا البريق من الجمـــال ، واحتضنت بيروسمانى من كتفيه النحيلتين الكبيرتين ، وانضغطت على سترته القديمة .

وسالت مارغريتا منقطعة الانفاس :

– لماذا ، لماذا اهديت لى هذه التلال من الزهور فى يـــوم ميلادك ؟ انا لا افهم شيئا ، يا نيكو .

لم يجب بيروسمانى . ولكن مارغريتا ادركت بكل كيانها ، بكل اعصابها ، بكل الدم الذى كان فى جسدها ، ودون جواب منه قوة حبه ، وقبلت نيكو بقوة لاول مرة من شفتيه . قبلته امام وجه الشمس والسماء والشهـــود البسطاء – سكان حى سولولاكى فى تفليس .

واستدار بعض الحاضرين ليخفوا دموعهم . لقد كان الناس يعتقدون بان الحب الكبير يجد دائما السبيل الى قلب المحبوب ، ولو كان باردا ، لأن الجميع كانوا يعرفون ان بيروسمانى كان يحب مارغريتا ، ولكنها لم تكن تحبه قط ، كانت تشفق فقط على حياته المريرة الخائبة .

ان حكاية حب بيروسمانى تروى باشكال مختلفة ، ولكننى سردت رواية واحدة من الروايات . وقد رويتها باختصار ، دون ان اعطى اهمية زائدة لصحتها الوثيقة . ويتحقق من ذلك المدققون المضجرون .

ولكننى لا استطيع ان اصمت عن حقيقة واحدة ، ذلك لانها ، فى رايى ، من اكثر الحقائق مرارة على الارض ، وهى ان مارغريتا سرعان ما وجدت لنفسها عشيقا ثريا ، وهربت معه من تفليس .

فينسنت العارم







فى عالم الابداع تحتدم دائما زوبعة الافكار والصور والالوان والضوء والعذاب والحب والبحث والاستقصاء . ويبدو لنـــا هذا العالم غامضا . ولعل ذلك لان كل فنان اصيل ، اذ يخضع لقوانين الابداع العامة (ذلك ما يزال على درجة غير كافية من الوضوح حتى الآن) يخلق فى نفس الوقت من اختلاف حياته عن حياة الفنانين الآخرين قوانينه الاضافية ، ويعمل وفق نهجه الخاص ، ويترك على اعماله طابع احواله ، ويعبر عن نفسه بطريقته الخاصة كليا .

لو لم يكن فينسنت فان-غوغ هولنديا ، ولو لم ينشأ فى عائلة متمسكة بالتقاليد مضجرة ملأت فمه بطعم المرارة ، ولو لم يصنع منه واعظا — انسانا ذا مهنة غاية فى الابهام والخلو من المسرة ، ولولا صداقته مع عمال المناجم العاطلين فى بوريناج والانطباعيين الفرنسيين المتحررين ، ولولا . . .

وفى الامكان ذكر عشرات من «لولا» هذه ، ولكن هناك شيئا واحدا مهما هو ان نزعات وظروف حياة فان-غوغ ساقت هذا الرجل بطرق غير معروفة الى نهاية غير متوقعة عند الوهلة الاولى — الى ان يصبح واحدا من عظماء الرسم اللامعين فى العالم .

وقد قدم فان-غوغ درسا عظيما لكل رجال الفن . درســـا فى التضحية بالنفس والاستقامة التى لا تلين قناتهـــا ، والتحمس الرائع الذى يرمى كالقشرة بالمحن والخيبات الشخصية .

وصف احد الذين كتبوا عنه حياته بانها جبل الجلجلة * . فقد سُمّر على صليب رسمه ، كما سُمّر دستويفسكى على صليب نثره .

ولا حاجة الى الفزع من هذا التشبيه . فهو يدل فقط على اندفاع الرسام الثر الى ان ينقل للعالم كل ما هو رائع يحيا فى قلبه وعقله بحيث ان وجوده كله يتمثل امامنا كطريق مرهق معذب وسار فى الوقت ذاته . وهذا الطريق يقع على شفا القوى الانسانية تقريبا .

* الجبل الذى صلب فيه المسيح ، كما جاء فى الانجيل — **المترجم**

وهذا يفسر موت فان-غوغ ايضا . وليس هناك اكثر لؤما من ان تُرد نهاية حياته الى الباثولوجيا والجنون فقط . لقد قيل منذ زمن طويل وعُرِف منذ زمن طويل ان الفن يتطلب من الفنان ان يهب نفسه كلها بدون فضلة وبلا ندم . وفى هذه الحال فقط ينال الفنان القوة غير المفهومة التى تسمى بعض الاحيان بالسحر .

والامثلة كثيرة على ما نسميه سحرا لشحة لغتنا .

ولنورد مثلا واحدا فقط . فى تراقيا ، وبالقرب من مدينـــة كازانليك اكتشف قبل فترة وجيزة قبر قائد تراقى . وقد زين بالفريسكات . وقد صور فى احداها القائد المتوفى جالسا وراء مائدة مادبة وهو اسود نحيل ، وكأنما احرقه الموت .

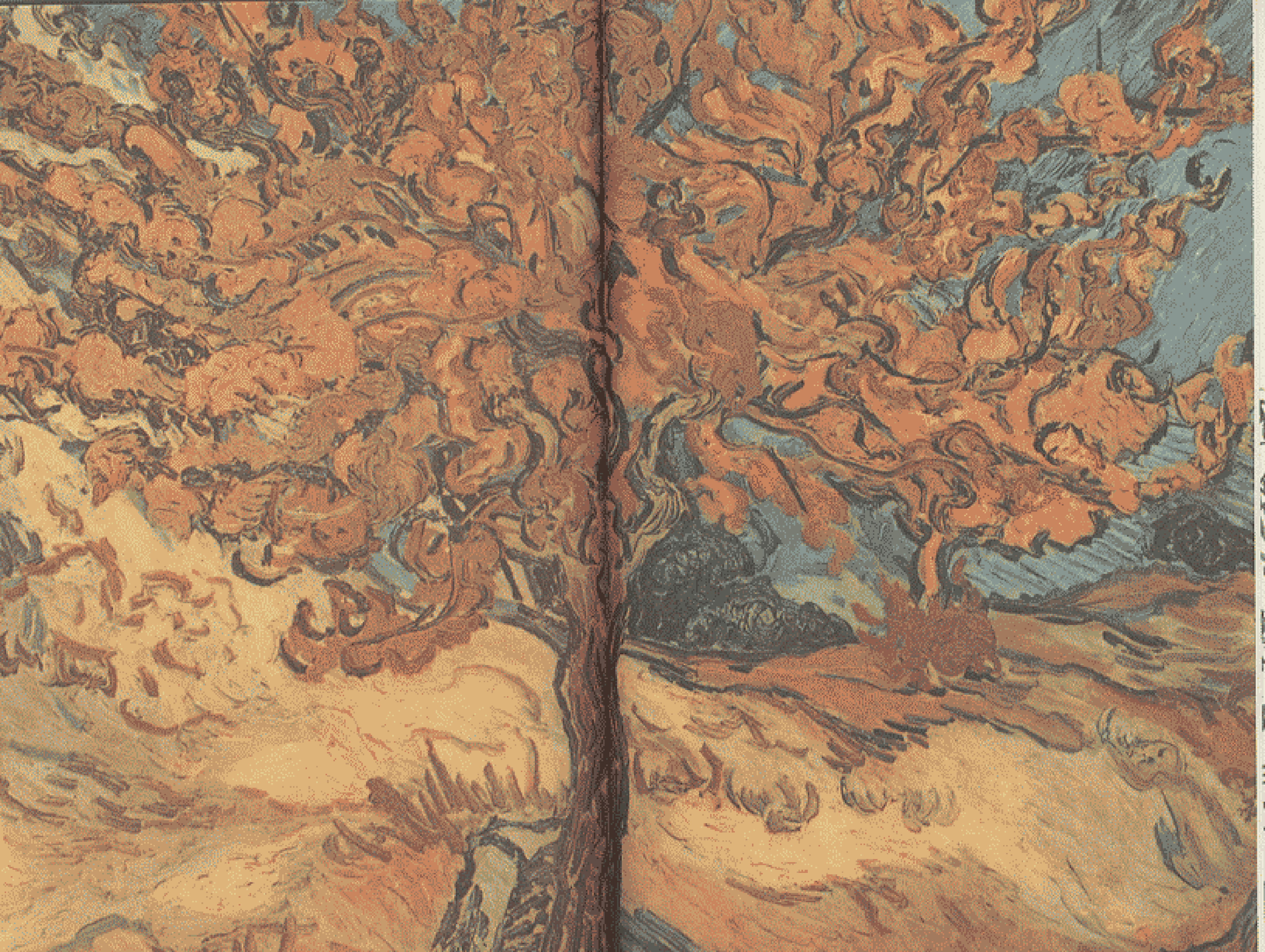
والى جانبه تجلس زوجته الحية ، وهى امرأة جميلة حزينة ، ويدها تضغط على يد زوجها السوداء . ولكن فى هذه اليد الحية ، فى اصابعها القوية الرقيقة من السكينة والايمان فى خلود المحبوب بحيث ان كل هذه الفريسكو على القبر تبدو اعظم تأكيد على الحياة والحب .

وتثير هذه الفريسكـــو الاحساس بالسحر . وهو يتضاعف بالخيول السوداء العصبية الواقفة خلف القائد الميت .

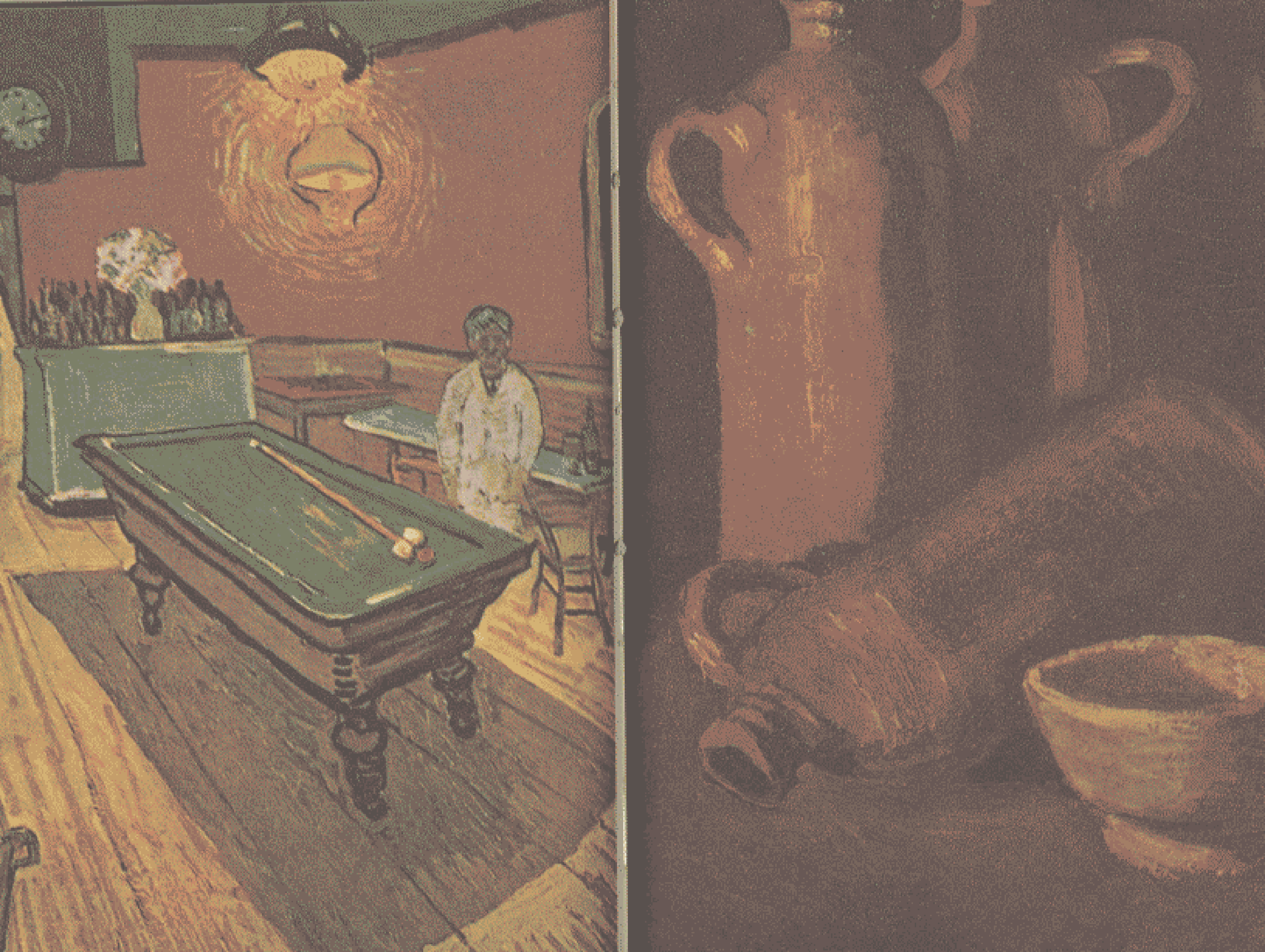
كان فان-غوغ رجلا ذا اندفاعات اجتماعية . وكان يبحث عن تنظيم جديد عادل للعالم . وقد سمى نفسه رسام الناس البسطاء — الفلاحين والعمال . وهو صاحب الكلمة القائلة : «ليس هنا اكثر فنية من ان تحب الناس» .

وحياة فان-غوغ كلها تأكيد على انه ، على الرغم من «الحكمة الكاذبة» التى لا تعتبر الرسم غير خادم للواقـــع الراهن ، فان الرسم قائم كظاهرة رائعة هى بحدها هدف لذاته فى سلسلـــة ظواهر الواقع الاخرى .

ان الموقف غير الصافى النية والمتشكك القائم حتى الآن ، والمتلاشى لحسن الحظ ، هذا الموقف مـــن الانطباعيين ، مـــن فان-غوغ يرجع اما الى الجهل الفنى او الى رفض ان يكون الشىء الجميل قوة حياتية متحركة ، او ، واخيرا ، الى الفزع امام كل ما يتعارض مع الاذواق الرثة والافكار المتعفنة .









ما يزال لدينا اناس «محسوبون» على الفن يشبهون صاحبة الغرف المؤجرة التى كان يعيش فيها ليفيتان فى موسكو . كان مدينا لها ، فاراد ان يسدد هذا الدين بلوحاته ، الا انها لم تاخذها ، لانه لم يكن لدى ليفيتان «موضوع» ، على حد قولها . فمن بحاجة الى السكينة الخالدة للانهار الشمالية ، او الى الخريف المذهب تحت قباب السماء المضببة ، اذا كانت اللوحات لا تحتوى على اشخاص وابقار ، واخيرا ، على دجاجات !

الموضوع شىء عظيم ، ولكن لا يجوز ان نطلب من جميع الرسامين (ولا من الكتّاب) وحدة المضمون والشكل . فالفن الاصيل لا يمكن ان يوجد الا مع سعة الآراء والاذواق .

اذا نحن نعترف بالفن الهيلينى ، ونعرف بفتنة نفرتيتى وسلطان دى لاكروا ونستروف ، ومئات من الرسامين المختلفين الآخرين فكيف نستطيع ان ننكر اهمية فان-غوغ الجبارة بمهرجان الوانه الدقيق الوضاء ورؤيته العميقة للعالم ! فان رجلا لا تسره ولا تؤثر فيه لوحاته ، اما منافق ، او كما قال الشاعر الفارسى سعدى «قرمة جافة» .

من الصعب ان نجد مثلا على التخلى عن النفس باسم الفن اكبر من حياة فان-غوغ . لقد حلم بان ينشئ فى فرنسا «اخوة الرسامين» التى هى كومونة من نوع خاص ، لا يصرفهم فيها شىء عن خدمة الرسم .

لقد عانى فان-غوغ الكثير ، وقد هوى الى قاع الياس الانسانى فى لوحتيه «اكلة البطاطس» و«جولة السجناء» وكان يعتبر ان مهمة الفنان هو مجابهة المعاناة بكل قواه ، بكل موهبته .

ان مهمة الفنان تولد الفرح . وكان يخلقه بالوسائل التى كان خاصية الطبيعة فى تناسب الالوان الصحيح ، والتنوع الذى لا حصر له فى تحولاتها ، ذلك التلون للارض الذى يتغير باستمرار ، ولكنه يتمكن منها اكثر من غيرها ، وهى الالوان . وكانت تبهره دائما فى الوقت ذاته جميل فى كل فصول السنة ، وفى كل خطوط العرض .

لعبت مدينة آرل الواقعة فى بروفانس دورا كبيرا فى حياة فان-غوغ . وآرل شبيهة بحلم .

ضوء النهار — بنقائه وحدته — يجعل لوحة آرل مجسمة بصورة خاصة وبارزة بشكل خاص ، مثلما يجعل حلبتها الرومانية التى ينطلق فيها مصارع الثيران الآن ، وشوارعها الخالية الشحيحة بخطوطها التى تشبه اسبانيا المجاورة ، وبيت فان-غوغ الصغير المنعزل الذى سلم فى طرف الخواء الذى تخلف من حى دمرته غارة جوية .

فى بهو الانطباعيين فى متحف اللوفر تحفظ الواح مزج الاصباغ لرسامى فرنسا الكبار ، ومن بينها لوحة فان-غوغ . وهى تبدو وكانها مكونة من قطع سميكة من ارض آرل . وهى تلمع بالمغرة والالمنيوم والنبيذ الاحمر واللون الخريفى لورقة العنب والصدا القديم والثقل البنفسجى الرطب للارض التى اعيدت حراثتها لتوها . والاشجار التى ربطتها ايدى عمالقة غير مرئيين بعقد نحاسية تشع بقشرة يمامية .

ان كل شىء كثيف ومتماسك . وكان الأصباغ تتباعد بعضها عن بعض ، وهى لا تقوى على تحمل توتر ولمعان جيرانها .

لقد غير الارض على جنفاصاته . وكانما غسلها بماء الاعاجيب ، فتالقت بالوان من السطوع والكثافة بحيث ان كل شجرة عجوز تحولت الى عمل من اعمال النحت ، وكل حقل برسيم الى ضوء شمسى تجسد فى جمهرة من الهالات المزهرة المتواضعة .

لقد اوقف بارادته تعاقب الالوان غير المنقطع ، لنستطيع نحن ان ننفذ الى جمالها .

وهل من المعقول بعد ذلك ان نؤكد ان فان-غوغ كان غير مكترث بالانسان ؟ لقد اهدى له احسن ما كان يمتلكه : قدرته على ان يعيش فى ارض تتالق بكل الالوان الممكنة ، وبكل التماعاتها الدقيقة .

لقد كان فقيرا وانوفا وغير عملى . وكان يقاسم المتشردين آخر قطعة من الخبز ، ويعرف جيدا ، ومن تجربته الخاصة ، ماذا يعنى الظلم الاجتماعى . وكان يزدرى النجاح الرخيص .



غوغان

وبالطبع لم يكن مناضلا . وبطولته تمثلت فى الايمان الراسخ بالمستقبل الرائع لاناس العمل – حرّاث الارض والعمال ، الشعراء والعلماء . ولم يكن فى وسعه ان يكون مناضلا ولكنـــه اراد ان يسهم بقسطه ، واسهم به ، فى ذخيرة المستقبل ، بلوحاته التى تمجد الارض .





فتحت النافذة . واندفعت الريح فى الغرفة . والى الاسفل كانت ترقد مدينة غير مالوفة . والشمس ترتفع عاليا فوق السطوح . وكانت رائحة الارض قوية بشكل خاص بعد العاصفة .

سحبت من تحت الدورق جدول مواعيـــد خطوط البواخر — الورقة صفراء صقيلة — وكتبت على ظهرها :

«كن متشردا ، التقط كل ما يقع فى طريقك — الضباب ، وجوه الناس وقد خلقت الامراض عليها غضونا ، الاشعار التى لا يقراها احد — وفكر بذلك بمتعة ، وجد نماذج غير مالوفة كما فى الحلم وابدأ حياة ثانيـــة ، ولتكن على هذه الاوراق . واخلق عالمك الخاص — غير الاعتيادى والغريب على المحيط كله — الخادش البائس غير المتبصر بشكل مضحك . «انحن على مرآة روحك ، وستشعر بالاستمتاع . روحك التى جنحها الحب تتطامن وتحلق الى القرى البعيدة ، حيث تزيح الحقيقة الدثار عن عقلك بيديها الواهبتين للنور» انا استطيع ان افكر فى هذه الحكمة الفارسية المأثورة ساعات واجد فيها عمقا متجددا .

انا افكر كثيرا فى الشىء الطارئ . هذا تخطيط صغيـــــر بالزيت . انه فى محفظة اوراقى . وفى اسفله توقيع اسود «الى غوغان — فينكلر» .

غوغان .

وابدأ بالتفكير فى حياة هذا الانسان .

كانت والدة غوغان اسبانية ذات شعر كحلى — هى ابنة حفيد قرصان مات عطشـــا فى الصحراء المكسيكيـــة . رنين الدروع النحاسية والنبيذ والذهب — الذهب الاسطورى المريع والسفلس ، كل ذلك شطب على ماضى عائلتها الكاثوليكية . اعطت ابنها الى مدرسة يسوعية . فدرس اللاتينية والتراتيل وتعرف على الحَبَل الطاهر وتحول دم المسيح الى نبيذ بورغوندى وقد كان فى الكهان العجاف ، وفى مسوحهم المتضوعة بالبخور والعطور شىء من اسلافه القساة . كان الرهبان فاتحى عصر امبراطورية القديس بطرس العظيمة .

وخرج من المدرسة ملحدا . وصار فى احد الاوقات بحارا . كانت الرحاب المترامية الاطراف تناديه بصوت من اسلافه مبهم . لقد مرت خلال ذاكراته كالشرخ فى زجاجة اللوحات الحمراء للاماسى الاستوائية ، وطلاؤها الذهبى الفظ والمشمشمع ، وانفاس الغرابة التى لا يتصورها عقل . وهل من السهل حقا ان يتحمل المرء طوال العمر الحنين الى البعيد الشفاف ، والظمأ فى ان يصور كل ذلك بالوان جديدة ؟

لقد كان ينتمى الى البلدان البدائية ، هذا الباريسى ذو السمرة القهوائية والبياض الاصفر لعينيه القلقتين .

كل شىء عادى بشكل مفرط : خدمته فى البنك ، بعد ان نزل من السفينة ، والعائلة ، والبيت الصغير بحصائره الخضراء فى حى عادىٴ من باريس ، ونزهات ايام الاحاد على النهر ، كل ذلـــك استبدله فجأة وببساطة بحياة رسام معدم . وسادة قذرة ، و . ان غير حليقين ، ولزق الاعلانات فى البولفارات ، ولوحات اولى ما ال غائمة . تلك هى بداية مستقبله .

كان يكره العقائدية والثقافة . لقد كان فيها شىء مسطح غير حى . وان يعيش فى المدينة ، ولا يعرف حتى خارطة السمـــاء النجمية شىء لا يحتمل ! ذلك ما قاله قبيل هروبه من باريس . فهرب الى جزيرة تاهيتى ، الى المحيط العظيم ، ذلك الذى خلق للعظيم . هرب وقد جرحته تلك الاصقاع جرحا مميتا .

كانت الشمس تذيب الاصباغ على لوحاتـــه . وكان ذوب الاصباغ ، اللون اللامع المبهج يسيل من الجنفاصات . الزرقـــة الداكنة ، الرمل البنى مثل جسد طفـــل ، الفتيات ذات الحلمات الناتئة ، الجدران العالية التى ترفعها الامواج الكبيرة . الذهب فى الليمون ، فى الميموزا ، فى الاماسى ، وعلى ارداف النساء .

كان يرسم والحمى ترعش يده . فيتوقف ، وينظر الى لوحاته ، الى تلك الريش الجبارة للطيور ، ولاول مرة آمن برواية التوراة عن ايام الخليقة . كان عالم صموت فريد مثقل بالالوان الكثيفة ينظر بتعطش اليه ، الى جسده الضعيف للغاية بالنسبة لعبقرى .









فن رؤية العالم



وتوفى ، وغطت فتاة تاهيتية – هى زوجته – عينيه بشعرها . كان الموسم موسم رياح ، والغيوم البيض تنطلق فوق الجزر . وبدا وكأن غوغان غط فى غفوة لا غير .

وبكى المتوحشون . لقد مات رجل ابيض رائع حمى بحنق شديد حياتهم ، جزيرتهم المذهبة بالشروق من ابيض آخر فى نظارة مستديرة بانظمته السياسية ، والاجهاضات ، والخمرة والحسابات .

وكان غوغان قبيل وفاته قد افزعه تدفق الناس من الغرب . وقد انسلوا ببشاشـــة وهدوء محركين فى جيوبهـم الاقراط والاساور . وشهوتهم تقطر منهم سم السيلان . اخذت الفتيات يغطين صدورهن البرتقالية بقماش الجيت الرخيص ، وفى الجزر التى كان يصلى فيها للصدَفة والماء راحت تطقطق آلات ريمنغتون الكاتبة . ولم يرد غوغان ان يسمح لاوربى واحد بالنزول الى وطنه الثانى . فاعلن على اوربا حربا غير متكافئة . وان هذا المتمرد الكافر الذى دفنه الرهبان بكل الفخفخة الانوف للطقوس الكاثوليكية بعد ان اعترفوا به ابنا بارا للكنيسة .

وهكذا قضى غوغان – الرجل ذو العينين العابستين ، وصدر بحار ، ذو اليدين المتضوعتين بالراتينج والاصباغ ، ونفس طفل عذبته الافكار الخالدة عن البعث وطفولة الانسانية .

وقد شاهدت لوحاته فى القاعات الدافئة المفروشة بالابسطة الشاحبة لفيلا شوكين فى موسكو . ورأيت امضاءه : Paul Gauguin وانا اتذكر صورته الذاتية . عينان لامعتان داكنتان تطلان بهدوء وصرامة من وجه مثلث . وكان ثلج ناعم هادئ موسكوفى ينزل وراء النافذة ، ويستقر على الاغصان وافاريز الكنائس .

عباقرة نصف منسيين ارتفعوا الى حد السوبرمان ، اقوياء فى مخالفتهم للمالوف ، غير اعتياديين ، اصحاب اهواء كالاطفال . وانا احب ان اتذكرهم ، واردد اسماءهم . فان التاملات فيهـم مؤثرة كالصلوات .

انا اتذكر الكثيرين من الجوالين ، الشعراء . عوز ، قدح من القهوة الخفيفة ، الق منجزات كبرى وحنين لا يشفى غليله تصدأ منه قلوب من هم اقل قوة .



> الرسم يعلم النظر والرؤيـــة (وهذان شيئان مختلفان ونادرا ما يتطابقان) وبفضل هذا يبقى الرســم حيا وطاهرا ذلك الاحساس الذى يميز الاطفال .
>
> **الكسندر بلوك**

> يتوقف الانسان مبهورا امام اشياء لا يمكن ان تلعب اى دور فى حياته : امام انعكاسات لا يمكن ان تمسك ، امام صخور عمودية الانحدار لا يمكن ان تفلح ، امام لون السماء المذهل .
>
> **جون رسكين**

هناك حقائق لا تقبل الجدل ، ولكنها غالبا ما تظل بلا جدوى ، دون ان تؤثر فى نشاط الانسان بسبب كسلنا او جهلنا .

من بين هذه الحقائق غير القابلة للجدل واحدة تتعلق بمهارة الكتابة ، ولا سيما بعمل الناثرين . وهى تتلخص فى ان معرفة جميع حقول الفن المجاورة — الشعر ، الرسم ، العمارة ، النحت ، الموسيقى — تغنى بشكل غير اعتيادى العالم الداخلى للناثر ، وتمد نثره بقوة تعبيرية خاصة . فتمتلئ بضوء والوان الرسم ، وطراوة الكلمات التى يتميز بها الشعر وتناسق العمارة ، وبروز ووضوح خطوط النحت وايقاع ونغمية الموسيقى .

وكل هذه الثروات الاضافية للنثر بمثابة الوان متممة له .

وانا لا اؤمن بالكتاب الذين لا يحبون الشعر والرسم . وهم فى احسن الاحوال اناس ذوو عقل كسول مغرور ، وفى اسواهـــا جهلاء .

لا يستطيع الكاتب ان يزدرى شيئا يوســع رؤيته للعالم ، اذا كان بالطبع فنانا ، وليس صاحب حرفة ، اذا كان صانع قيم وليس عاميا يمتص الرفاه من الحياة بالحاح ، مثلما تعلك العلكة الامريكية .

وغالبا ما يحدث بعد قراءة اقصوصة او قصة وحتى رواية طويلـــة ان لا يبقـــى فى الذاكرة غير رواح ومجيء ضوضائيين

لاشخاص غائمين . وتجاهد بضنى لكى ترى هؤلاء الاشخاص ، ولكنك لا تراهم ، لان المؤلف لم يعطهم اية صفة حية .

والحدث فى هذه الاقاصيص والقصص والروايات يجرى فى يوم متثلج مجرد من الالوان والضوء ، وسط اشياء سماها المؤلف فقط ولكن دون ان يراها ، ولهذا لا تظهر لنا ، نحن القراء .

وبالرغم من حداثة الموضوع الا ان العجز يقطر من هـــذه الاشياء الموضوعة غالبا فى حماسة زائفـــة . انهم يحاولون ان يعوضوا بها عن الفرح ، لا سيما فرح العمل .

وعلة هذا الذبول ليست فقط فى فقر المؤلف الى العاطفـــة وجهله ، بل وفى بصره الخامل المهزوز .

وتتملك المرء الرغبة فى ان يحطم مثل هذه القصص والروايات مثلما يحطم نافذة صُمغت تماما فى غرفـــة خانقة مغبرة ، بحيث يتطاير حطامها شذرا ، فتندفع فى الحال من الخارج الريح وهـ جيج المطر وصيحات الاطفال وصفارات القاطرات ولمعان الارصـــة الرطبة ، وتندفع الحياة كلها بالخليط المضطرب ، عند النظرة الاولى ، والرائع لضوئها والوانها وضجاتها .

عندنا غير قليل من الكتب كانما كتبها عميان . وهى معدة للمبصرين . وفى ذلك يكمن كل عبث صدور مثل هذه الكتب .

ولكى يبصر الانسان لا يحتاج فقط الى ان ينظر فيما حوله من جهات ، بل ان يتعلم ان يرى . ولا يستطيع ان يرى الناس والارض جيدا الا مَن يحبهم . وغالبا ما تعود رثاثة النثر وبهرجته الى برودة دم الكاتب ، الامارة الرهيبة على موت حساسيته . ولكن ذلك احيانا مجرد عدم قدرة يدل على نقص فى الثقافة . وحينئذ يكون الامر ، كما يقال ، قابلا للاصلاح .

ان الرسامين يستطيعون ان يعلمونا كيف نرى ، وكيف نتقبل الضوء والالوان . فهم يرون احسن منـــا . وهم يقدرون على ان يتذكروا ما راوه .

عندما كنت ما ازال كاتبا شابا قال لى رسام من معارفى :

— انت ، يا عزيزى ، ما تزال لا ترى بوضوح كلى ، بشكل مغبش بعض الشىء ، وبفظاظة . وتدل اقاصيصك على انك لا تلاحظ

الا الالوان الاساسية والسطوح المطلية بشـــدة . اما الانتقالات ودرجات اللون فهى تندمج عندك فى شىء رتيب .

فاجبت فى تبرير :

— وما فى وسعى ان افعل ! بصرى بهذا الشكل .

— هراء ! البصر الجيد يمكن ان يكتسب . فاعتن ببصرك ، ولا تكسل . ابق عليه مشحوذا ، كما يقولون . حاول لشهر او لشهرين ان تنظر الى كل شىء ، وكانما يتحتم عليك ان ترسمه بالالوان . وانظر الى الناس على هذا النحو بالذات سواء اكنت فى الترام او الباص او فى اى مكان آخر . وبعد يومين او ثلاثة ستقتنع بانك قبل هذا الحين لم تكن ترى فى الوجـــوه عشر ما لاحظته الآن . وبعد شهرين ستتعلم ان ترى ، وعنـــد ذاك لن تكون بحاجة بعد الى ان تجبر نفسك على ذلك .

واطعت الرسام ، وبالفعل بدا لى الناس والاشياء امتع بكثير من ذى قبل ، حين كنت انظر اليهم خطفا وعلى عجل .

ولم اشعر الا بالاسف على تضييع الوقت بتفاهة . فكم كنت استطيع ان ارى من اشياء رائعة خلال سنين ! وكم من اشياء رائعة ضاعت بلا رجعة ولا استطيع لها بعثا !

وكان ذلك اول درس اتلقاه من رسام . وكان الدرس الثانى عيانا .

ذات مرة فى الخريف سافرت من موسكو الى لينينغراد ، ولكن لا عن طريق كالينين وبولوغويه ، بل من محطة سافيلوفسكى عن طريق كاليازين وخفونيا .

ان الكثيرين من اهالى موسكو ولينينغراد لا يراودهم حتى الظن فى وجود هذا الطريق . وهو على الرغم من انه اطول من الطريق المعتاد المار ببولوغويه الا انه امتع ، لانه يمر عبر اصقـــاع صحراوية وغابية .

كان رفيق سفرى شخصا صغير الجسم ذا عينين ضيقتيـــن ولكنهما حيويتان جدا . وكان متهدل الثياب . وكان يصحب معه

صندوقا كبيرا من الاصباغ ولفات من الجنفاص المطلى بالطبقـــة التحضيرية للرسم . فلم يكن من الصعب الحدس بانه رسام .

واخذنا نتحادث . وذكر رفيق سفرى انه مسافر الى ضاحيـــة مدينة تيخفين ، حيث له صاحب يعمل حارس غابة ، وسينزل عنده فى مقر الحراسة ويرسم الخريف . سألته :

— ولماذا تذهب الى هذا المكان البعيد ، فى ضاحية تيخفين ؟

اجاب الرسام يستسرنى :

— لى هناك مكان مفضل . تاج لكل الاماكن ! لا تجد له مثيلا . غابة خالصة من الحور الرجراج ! وهنا وهناك بعض اشجـــار الشربين المتفرقة . شجرة الحور تضفى على الخريف حلة قشيبة لا تضفيها اية شجرة اخرى . وورقتها صافية التلوين . قرمزية ، ليمونية وبنفسجية وحتى سوداء ذات بقعة ذهبية . وفى الشمس تتبدى نارا رائعة . ساعمل هناك حتى الشتاء ، وفى الشتاء اسافر الى الخليج الفنلندى ، فيما وراء لينينغراد . وهناك ، ولعلك تعرف ، احسن جمد فى روسيا . لم ارَ له مثيلا فى اى مكان .

قلت مازحا بالطبع ان رفيق سَفرى يستطيع على هذه المعارف ان يضع دليلا سياحيا قيما للرسامين ليدلهم اين يجدون ضالتهم .

اجاب الرسام جادا :

— وماذا تظن ! ليس من الصعب وضع مثل هذا الدليل . ولكن لا جدوى من ذلك . سيزدحم الجميع فى مكان واحد . بينما الآن يبحث كل فرد جمالا لنفسه على انفراد . وهذا افضل بكثير .

— لماذا ؟

— البلاد تتكشف باشكال مختلفة . فى الارض الروسية من الفتنة ما يكفى جميع الرسامين لآلاف السنين . ولكن لعلمك — اضاف بفزع — ان الانسان اخذ يكثر من سحق الارض وتدميرها . بينما جمال الارض شىء مقدس عظيم فى حياتنا الاجتماعية . وهو احد اهدافنا النهائية . لا اعرف كيف انت ، ولكننى واثق من ذلك . لا يمكن للانسان ان يكون طليعيا بدون فهم ذلك !

غفوت فى النهار ، ولكن سرعان ما ايقظنى جارى . وقـــال مضطربا :

— اغضب عليّ ، ولكن الافضل من ذلك ان تستيقظ . ها هى لوحة مدهشة تتكشف . عاصفة رعدية فى ايلول . فانظر !

واطللت ببصرى وراء النافذة . من الجنوب ارتفعت سحابة ثقيلة عالية الى كبد السماء . وكانت ومضات البرق تهزها .

هتف الرسام :

— يا امنا الطاهرة ! ما اوفر الالوان ! لا يمكن ان ترسم مثل هذه الاضاءة ، ولو كنت ليفيتان نفسه .

سالت متحيرا :

— اية اضاءة ؟

قال الرسام فى يأس :

— يا الهى ! الى اين تنظر ؟ انظر هناك . غابة داكنة تماما وبعيدة . وعليها انطرح ظل السحابة . وهناك ، الى ابعد ، توجد عليها بقع شاحبة ، صفراء وضاربة الى الخضرة ، وذلك من ضوء الشمس المخنوق من وراء السحب . وفى البعيد تراها فى الشمس كلها . هل ترى ؟ كأنها سبيكة من ذهب احمر . شفافة كلها . حائط ذهبى موشى فريد من نوعه . او كما لو مدّ على الافق منديل طرزته ماهرات فى دور التذهيب عندنا فى تيخفين . والآن انظر اقرب ، الى شريط اشجار الشربين . هل ترى اللمعان البرونزى على اوراقها الابرية ؟ هذا انعكاس حائط الغابة الذهبى . انه يضفى على الشربين ضوءه . ضوء انعكاسى . يصعب رسمه ، وتسهل الاساءة اليه . اما هناك ، فانظر ، شعشعة باهتة فقط ، ويمكن ان اقول ان هذه الرقة فى الاضاءة تحتاج ، بالطبع ، الى يد هادئة واثقة لتنقلها .

ونظر الرسام الىّ وضحك :

— اية قوة للضوء المنعكس عن الغابات الخريفية ، على اية حال ! مقصورتنا كلها كأنما تتوهج . ولا سيما وجهك . حبذا لو رسمتك . ولكن ذلك خاطف ، مع الاسف .

قلت :

— وتلك مهمة الرسامين ، ان يوقفوا الاشياء الخاطفة قرونا .

اجاب الرسام :

— نحاول . اذا كان هذا الشىء الخاطف لا يأخذك مباغتة ، كما هى الحال الآن . والرسام ، اذا اردت الحق يجب الا يفارق الاصباغ والجنفاص والريشة ابدا . وذلك افضل بالنسبة لكم ، انتم الكتاب . فانتم تحفظون هذه الاصباغ فى ذاكرتكم . انظر كيف يتغير هذا كله بسرعة . آه ، كيف تشع الغابة بالضوء تارة ، وبالظلمة اخرى .

وامام السحابة الرعدية كانت تندفع نحونا غيوم مهلهلة ، وبحركتها المندفعة كانت جميع الالوان على الارض تختلط بالفعل . وبدات فى الابعاد الغابية شربكة من القرمزى والذهب الاسود والابيض ، والدَهْنَج ، والارجوان والظلال الزرقاء .

ومن حين لآخر كان شعاع الشمس ينفذ من خلال السحابة ، ويسقط على اشجار البتولا المتفرقة ، فتتوهج واحدة بعد الاخرى مثل مشاعل ذهبية ، الا انها كانت تنطفئ فى الحال . وكانت ريح ما قبل العاصفة الرعدية تهب بدفقات ، وتشدد هذا المزيج من الالوان .

وهتف الرسام :

— والسماء ، اية سماء هى ! انظر اى عجب عجاب تفعله !

كانت السحابة الرعدية ترسل دخانا كرذاذ الرماد وتهبط بسرعة نحو الارض . وكانت فى كليتها بلون الاردواز الرتيب . ولكن كل توهج من البرق كان يكشف فيها دوامات صفراء مريعة ، وكهوفا زرقاء وصدوعا كلسية مضاءة من الداخل بنار وردية كدرة .

وكان لمعان البروق الحاد يتحول فى قلب السحابة الى توهج اللهب النحاسى . والى مسافة اقرب الى الارض ، بين السحابة والغابات ، كانت شرائط من المطر الوابل قد بدأت تهطل .

هتف الرسام منفعلا :

— يا للمنظر ! انت لا ترى مثل هذه الروعة الشيطانية الا ما ندر .

وانتقلنا — هو وانا — من نافذة المقصورة الى نافذة فى الممر . كانت الستائر ترفرف من الريح ، وتشدد من توامض النور .

مطل وابل شديد . رفع مراقب العربة النوافذ بسرعـــة . وكانت خطوط المطر المائلة تدق الزجاج كالاوتار . وشحـب الضوء ، وفى المدى البعيد فقط ، عند الافق تماما ، كان آخر خط مذهب من الغابة ما يزال يتنور من خلال نقاب المطر .

سأل الرسام :

– هل علق فى ذاكرتك شيء ؟

– شيء ما .

قال بغم :

– وانا ايضا شيء ما . وعندما ينقضى المطر ستكون الالوان اقوى . وعند ذاك تاخذ الشمس بالتالق على اوراق الشجـــر وجذوعه . بالمناسبة تطلع الى الضوء فى يوم غائم قبيل المطر . فهو قبل المطر شيء واثناء المطر شيء آخر ، وبعد المطر شيء فريد تماما . رمادى ، رقيق ودافئ . وعلى العموم ادرس الالوان والضوء . انها ، يا عزيزى ، متعة واية متعة . انا لن استبدل نصيبى كرسام باى شيء آخر .

فى الليل نزل الرسام فى محطـــة صغيرة . وخرجت انا الى الرصيف اودعه . كان مصباح كيروسين يضيء . والقاطرة تلهث لهاثا ثقيلا الى الامام .

وغبطت الرسام . وفجأة اخذنى السخط على كل الاعمال التى من اجلها كان علىّ ان اواصل السفر ، غير قادر على البقاء حتى لبضعة ايام فى البلاد الشمالية . فهنا كل غصن من الخَلَنج يمكن ان يثير من الافكار ما يكفى عدة قصائد من النثر .

وكان غير مفهوم كليا ذلك الظرف الذى احاق بى ، والذى لم يتح لى طوال حياتى ، مثل اى شخص آخر ، ان اعيش حسب هوى قلبى ، فكاننى كنت مشغولا فقط بامور لا تحتمل التأجيل .

ان الالوان والضوء فى الطبيعة يجب ان تعاش اكثر مما يجب ان تراقب فقط . وبالنسبة للفن لا تنفع الا تلك المـــادة التى تستحوذ على مكان لها فى القلب .

والرسم مهم للناثر ليس فقط لانه يساعد على ان يرى الالوان والضوء بل وان يحبها . كما ان الرسم مهم لان الرسام غالبا ما يلحظ ما لا نراه نحن ابدا . وبعد لوحاته فقط نبدا نحن بأن نرى ذلك ، وندهش من اننا لم نلحظه من قبل .

سافر الرسام الفرنسى مونيه الى لندن ، ورسم كنيســـة ويستمينستر . وقد عمل مونيه فى يوم لندنى ضبابى عادى . وفى لوحة مونيه لا تكاد الخطوط القوطية للكنيسة تظهر من الضباب . ان اللوحة مرسومة باستاذية .

وعندما عرضت اللوحة اثارت البلبلة بين اللندنيين . وقد ذهلوا لان الضباب مرسوم فى لوحة مونيه بضوء قرمزى ، بينما كان معروفا حتى من كتاب القراءة ان لون الضباب رمادى .

واثارت جراة مونيه السخط فى بداية الامر . الا ان الساخطين ، حين خرجوا الى شوارع لندن ، حدقوا فى الضباب ، ولاول مرة لاحظوا انه قرمزى بالفعل .

عند ذاك بداوا يبحثون عن تعليل لذلك . واستقر رايهم على ان درجة اللون الاحمر للضباب تتوقف على وفرة الدخان . وفضلا عن ذلك فان بيوت لندن الآجرية الحمراء تمد الضباب بهـــذا اللون .

ولكن مونيه انتصر على اية حال . وبعد لوحاته اخذ الناس يرون ضباب لندن كما كان يراه الرسام . حتى ان مونيه سمي بـ«خالق ضباب لندن» .

واذا استقيت امثلة من حياتى ، فاننى رايت لاول مرة كل تنوع الالوان فى الجو الغائم الروسى بعد لوحة ليفيتان «فى السكون الدائم» .

وقبل ذلك الحين كان الجو الغائم يتلون فى عينى بلون واحد مقبض . وكآبة الجو الغائم كلها كانت ترجع بالذات كما كنت اظن ، الى ان هذا الجو كان يبتلع كل الالوان ، ويغطى الارض بالكدرة .

الا ان ليفيتان رأى فى هذا الانقباض درجة لون معينة للسعة ، بل وحتى للفخامة ، ووجد فيها كثيرا من الالوان النقية . ومنذ ذلك الحين لم يعد الجو الغائم يقبضنى . بل بالعكس احببته لنقاء الهواء ،

والبرودة التى تلتهب الخدود ، والتكسر القصديرى الخفيف للانهار ، وتحرك السحب الثقيل . واخيرا لانك فى الجو الغائم تاخذ بتقدير خيرات الحياة البسيطة : البيت المدفأ ، والنار فى الموقد الروسى ، وهسيس السماور ، والقش الجاف على الارض المفروشة بالجنفاص الخشن للمنام ، وضجيج المطر الداعى الى النوم وهو يهبط على السطح ، والغفوة العذبة .

ان كل رسام تقريبا ، مهما يكن الزمن او المدرسة التى ينتمى اليها يكشف لنا عن ملامح جديدة للواقع .

وقد اسعدنى الحظ ان ازور معرض درزدن بضع مرات .

هناك الى جانب «عذراء سيكستين» لروفائيل لوحات كثيرة للفنانين القدامى اجد من الخطر تماما التوقف امامها . فانها لا تدعك تنصرف عنها . وانت تستطيع ان تتمعن فيها ساعات ، وربما ، اياما ، وكلما اطلت التمعن ازداد واتسع فى نفسك قلق روحى غير مفهوم . وهو يصل الى الحد الذى يصعب على الانسان فيه ان يحبس دموعه .

فما سبب هذه الدموع الحبيسة ؟ السبب هو ان فى هذه اللوحات كمال الروح وسلطان العبقرية التى تجبرنا على ان نهفو نحو النقاء والقوة ونبل افكارنا .

عند تأمل الشىء الجميل تبزغ الرهبة التى تسبق تطهيرنا الداخلى . وكأن كل طراوة الامطار والرياح وانفاس الارض المزدهرة وسماء منتصف الليل والدموع التى اراقها الحب ينفذ الى قلبنا الممتن ، ويستحوذ عليه الى الابد .

الانطباعيون كأنما قد شددوا على ضوء الشمس . فقد كانوا يرسمون فى الهواء الطلق ، واحيانا ، وربما عن عمد كانوا يشددون على الالوان . وقد ادى ذلك الى ان الارض بدت فى لوحاتهم باضاءة متهللة .

اضحت الارض بهيجة . ولم يكن فى ذلك ضير ، كما لا ضير فى ان يضاف للانسان ولو قليلا من الحبور .

والانطباعية ملك لنا مثل سائر التراث الغنى للماضى . ورفضها يعنى ان ندفع انفسنا الى ضيق الافق عن وعى . ذلك لاننا لا نرفض «عذراء سيكستين» لرافائيل ، رغم ان هذه اللوحة العبقرية قد رسمت فى موضوع دينى . ولسنا نحن من البلاهة بحيث لا نفهم اين يقع الحد بين عبقرية الرسم والدين ولا اظن ان انسانا سوفييتيا واحدا على الاقل اعجب بـ«عذراء سيكستين» وانقلب متدينا فجأة . ان سخف هذه الفكرة واضح . فلماذا نأخذ هذه الافكار المضحكة للغاية مأخذ الجد حين يمس الامر الانطباعيين ؟ ما الخطر علينا فى المجدد بيكاسو ، وفى الانطباعيين ماتيس وفان-غوغ او غوغان ؟ الشخص الذى ناهض – والقول بالمناسبة – السلطات الفرنسية الاستعمارية فى سبيل استقلال الهايتيين .

ما هو المخطر فى ذلك او المضر ؟ واية ادمغة حاقدة متكيفة مع الظروف يمكن ان تفكر بضرورة الشطب من الثقافة الانسانية ومن ثقافتنا على الاخص ، منظومة من الرسامين اللامعين ؟

بعد التقائى بالرسام فى القطار وصلت الى لينينغراد . ومرة اخرى انداحت امامى المجموعات المهيبة لساحاتها وعماراتها .

امعنت النظر فيها طويلا محاولا ان اكتشف سرها المعمارى . كان يكمن فى ان هذه العمارات تخلف انطباعا بالفخامة ، بينما لم تكن فى حقيقة الامر ضخمة . ان واحدة من اروع هذه المنشآت – وهى بناية القيادة العامة الممتدة قوسا متسقا مقابل قصر الشتاء لا تزيد فى ارتفاعها عن بيت ذى اربعة طوابق . ومع ذلك فانها اضخم من اى بيت عال فى موسكو .

لقد كان الكشف بسيطا . فان ضخامة العمارات كانت تتوقف على توازنها ، نسبها المنسجمة ، وعلى العدد القليل من زيناتها – أطر النوافذ ، الزخرفيات والنقوشات الضئيلة البروز .

فانت تدرك عند امعانك النظر فى هذه العمارات ان الذوق الجيد هو الاحساس بالحد قبل كل شىء .

وانا واثق من ان لهذه القوانين لتناسب الاجزاء ، وغياب كل ما هو زائد ، والعدد القليل من الزينات ، والبساطة التى يبرز فيها

كل خط ، وتوفر الاستمتاع الحقيقى – لكل ذلك صلة معينـــة فى النثر ايضا .

والكاتب الذى احب كمال الاشكال المعمارية الكلاسيكية يابى على نثره التركيب الثقيل المتخلخـــل . وهو سيحقق توازن الاجزاء والدقة فى الرسم بالكلمات . وسيتحاشى الافراط . فى التزاويق التى تضعف النثر ، او كما يسمى بالاسلوب المزوق .

ان تركيب النثر يجب ان يبلغ الحد الذى لا يمكن ان يحذف منه شىء او يضاف اليه شىء دون الاخلال بفحوى السرد والسياق القانونى للاحداث .

وكعادتى دائما كلما جئت الى لينينغراد قضيت معظم الوقت فى المتحف الروسى والارميتاج .

ان العتمة الخفيفة لقاعات الارميتاج ، المشوبة بذهبية داكنة كانت تبدو لى مقدسة . فكنت ادخل الارميتاج ، وكانما الى مستودع العبقرية الانسانية . ففى الارميتاج احسست لاول مرة ، وانا ما ازال فتى ، بالسعادة لكونى انسانـــا ، وفهمت كيف يمكن ان يكون الانسان عظيما وفاضلا .

وفى الفترة الاولى ضعت وسط موكب الفنانين الحافل . وكان راسى يدور من وفرة وكثافة الالوان ، ولكى استريح قليلا ، كنت اخرج الى القاعة التى عرضت فيها اعمال النحت .

وقد لبثت هناك طويلا . وكلما اطلت النظر فى تماثيل النحاتين الهيلينيين المجهولين او فى نساء كانوفا المبتسمات ابتساما لا يكاد يلحظ ، ادركت بوضوح اشد ان كل هذا النحت دعوة الى الجميل فى داخل انفسنا ، وانه بشير لانقى شروق صباحى للانسانية . حينذاك سيسيطر الشعر على القلوب ، وسيقوم النظام الاجتماعى – نفس النظام الذى نسير نحوه عبر سنى العمل والمشاغل والجهد الروحى – على جمال العدالة ، جمال العقل والقلب والعلاقات الانسانية والجسد الانسانى .

ان طريقنا هو الى العصر الذهبى . وسيكون . ومن المحزن ، بالطبع الا العمر لا يمتد بنا لنشهده . ولكن يجب ان نكون سعداء

بأن ريح هذا العصر اخذت تضج بالفعل حولنا ، وتجعل قلوبنـــا تزداد خفقانا .

وليس عبثا ان هاينى كان يذهب الى اللوفر ويجلس ساعات بالقرب من تمثال فينوس دو ميلو ويبكى .

على اى شىء ؟ على كمال الانسان المنتهك . على ان الطريق الى الكمال صعب وطويل ، وانه ، اى هاينى ، الذى قدم للناس سم وتالق عقله ، لن يبلغ ، بالطبع ، تلك الارض الموعودة التى كان قلبه المتوثب يدعوه اليها طوال حياته .

وفى ذلك قوة النحت ، تلك القوة التى بدون نارها الداخلية يتعذر الفن المتقدم ، ولا سيمـــا فن بلادنا . وبدونها ايضا يتعذر النثر الكامل الوزن .

الى القراء

ان دار «رادوغا» تكون شاكرة لكم اذا تفضلتم وابديتم لها ملاحظاتكم حول ترجمة الكتاب ، وشكل عرضه ، وطباعتـــه ، واعربتم لها عن رغباتكم .

العنوان : زوبوفسكي بولفار ، ١٧
موسكو ، الاتحاد السوفييتي

طبع في الاتحاد السوفييتي